لو كتب الله تعالى عليهم أن يغادروا هذه الحياة الدنيا ويتركوا خلفهم ذرية ضعافا • إنّ كل ولى لليتامى صاحب نفس حرة أبية كريمة ، حينما يتصور أن ذريته يجوز أن يكونوا مستقبلا ، فى الوضع الذى فيه اليتامى الذين هو وليهم ، فانه ولا شك سيتقى الله تعالى فى اليتامى وسيقول قولا سديدا •

وما أكثر الإشارات فى السنة النبوية المطهـرة التى توصى باليتيم خيرا ، يستوى فى ذلك الذكر والأنثى بطبيعة الحال • ومما جاء عن اليتيمقوله صلى الله عليه وسلم : أنا وكافل اليتيم فى الجنـة هكذا وأشار باصبعيه ، السبابة والوسطى[1] » •

انّ آية الحكمة تنهى عن مجرد الاقتراب من مال اليتيم ، على غرار ما جاء فى آية سابقة من آيات الحكمة من النهى عن مجرد الاقتراب من الزنى • فكأن النهى عن الاقتراب يعنى النهى عن الرعى حـول الحمى • فعلى أولياء اليتامى أن يتقوا الله تعالى ويقولوا قولا سديدا •

والآية الكريمة تجمع بين النهى عن الاقتراب من مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وبين الأمر بالوفاء بالعهود • ونود أن نعرف الحكمة من هذا الجمع وأن نتبين الرباط بينهما •

الحقيقة أنّنا حينما نبحث بين القضايا التى عَرَضَتْ لها آيات الحكمة ، عن القضية التى يبدو فيها صاحب الحق ذا حاجة كبيرة لأن يتقى الله تعالى فيه لضعفه ، وذا حاجة كبيرة لأن يراعى بحقه عهد الله تعالى الذى قطعه الطرف الآخر على نفسه ، أو ذلك العهد الذى يفترض أن الطرف الآخر ما جاز أن يكون وليا الا لأنه أهل للوفاء بالتزامات القضية التى يعتبر العهد وضرورة الوفاء به جزءا طبيعيا منها ، فانّه يتبيّن أن قضية اليتيم الذى هو بحاجة لأن يصان حقه ، أولى القضايا بكل ذلك خاصة وأن المال مغر بطبعه • وبسبب ذلك جمعت الآية الكريمة بين النهى عن الاقتراب من مال اليتيم إلّا بالتى هى أحسن ، حتى يبلغ أشده ، وبين الأمر بالوفاء بالعهود • قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا ﴾ •

---

(١) صحيح البخارى ، ١٠/٨ •

وإذا كان صدر الآية الكريمة مختصا بنوع واحد من العهود ، فإن عجزها شامل لكل أنواع العهود والمواثيق • وما أكثر الآيات القرآنية الكريمة التى دعت للوفاء بالعهد وأظهرت قيمة العهد وجمال الوفاء به وقبح نقضه • فقد جاء مثلا فى سورة النحل[1] قوله تعالى : ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون • وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا • ان الله يعلم ما تفعلون﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا انما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون﴾ وقال تعالى فى سورة الرعد[3] : ﴿أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب • سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار • والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ وقال تعالى فى سورة المؤمنون[4] : ﴿قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون • والذين هم عن اللغو معرضون • والذين هم للزكاة فاعلون • والذين هم لفروجهم حافظون • الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين • فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون • والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون • والذين هم على صلواتهم يحافظون • أولئك هم الوارثون • الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ •

وبما أن العهد يكون فيما عقده الانسان بينه وبين ربه ، أو بينه وبين آدمى فى طاعة ، فلا شك أن عهد الله أحق بالوفاء وأولى •

---

(١) آية ، ٩٠ ، ٩١ .
(٢) النحل ، ٩٥ .
(٣) آيات ، ١٩ — ٢٥ .
(٤) آيات ، ١ — ١١ .

وفى إمكاننا القول ، بشأن التعقيب فى الآية الكريمة : ﴿ ان العهد كان مسئولا ﴾ ان العهد دائما وأبدا مسئول صاحبه عن الوفاء به • ومن الجائز أن يكون المعنى أن العهد نفسه هو المسئول يوم القيامة : هل وفى بك صاحبك أم لا ؟ وكلا التفسيرين دليل على جلال العهد وجمال الوفاء به وقبح نقضه •

أوفوا الكيل وزنوا بالقسطاس

قال تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ •

إذا كانت هذه الآية الكريمة قد ابتدأت بالقول : ﴿ وأوفوا ﴾ فانه ذات القول الذى ابتدأ به عجز الآية السابقة : ﴿ وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا ﴾ فالوفاء هو الرباط بين الآيتين الكريمتين •

وبتأملنا لآية الكيل والوزن يتضح أنهـا تتناول الشـيئين الأكثر استعمالا فى كل أمة أثناء عملية البيع والشراء ، وبخاصة فى العصور السابقة حيث كانت العلاقة بالأمور الضرورية وما فى حكمها ، أكثر من الأمور الكمالية • ولا شـك أن الكيل والوزن رمزان لمـا عداهما من الوسائل الأخرى التى يتعامل الناس بها فى البيع والشراء كالقياس والعدّ • فينبغى أن يكون هناك الوفاء الدائم فى كل أنواع المعاملات •

وإن الوفاء بالكيل — والوزن كذلك — ينبغى أن يكون فى كل من حالتى البيع والشراء • وإلا كان هناك تطفيف فى الكيل • والى ذلك أشار قوله تعالى فى سورة المطففين[1] : ﴿ ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون • واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون • ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم • يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ فهناك فريق من الناس • والعياذ بالله ، هذه هى طريقتهم فى البيع والشراء • إذا كان لهم الحق عند الآخرين أخذوه أثناء الكيل كاملا غير منقوص • وإذا كان للآخرين عندهم الحق بخسوهم الكيل • وقس على ذلك الوزن والعدّ والقياس أو الذرع • وقد وعد الله تعالى

---

(١) آيات ، ١ — ٦ .

هذا الفريق من الناس بالخسران فى الدنيا والآخرة • كما أمرت آية سورة الإسراء كلَ انسان بالوفاء الذى تقيده بالقول : ﴿ اذا كلتم ﴾ فينبغى أن يكون الوفاء ، أثناء عملية الكيل ذاتها وليس فى وقت لاحق • فليس من حق إنسان يؤمن بالله واليوم الآخر أن ينقص الكيل ، ولو على أمل أن يفى فى المستقبل للذى بخسه حقه • بل إنّ الوفاء فى الكيل والوزن والعد والقياس من سمات عملية البيع والشراء • وكما أن البائع حريص على أن يأخذ حقه كاملا غير منقوص ، كذلك عليه أن يعطى المشترى حقه كاملا غير منقوص • فبهذا أمر الشرع الحنيف •

وإلى عملية الوزن أشار قوله تعالى : ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ والقسطاس ، بالضم والكسر : الميزان وأقوم الموازين • وقيل إنّ اللفظ رومى معرب[1] وإنّ القول : « المستقيم » يعطى الصفة الحقيقية لذلك الميزان • فيجب ألا يكون فيه أدنى خلل يلحق الضيم بالمشترى ولا بالبائع أيضا • وقد جرت العادة بأن يكون الضيم لاحقا بالمشترى ، فليتق الله تعالى البائع وليقل قولا سديدا •

وفى حالة عدم الامتثال لأوامر الله تعالى بالكيل والوزن ، يكون الانتقام الشديد من الله تعالى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة •

وكثير هى الإشارات فى القرآن الكريم والسنة المطهرة إلى النهى عن أكل أموال الناس بالباطل فى أية صورة من الصور • وإنّ عملية البيع والشراء تشكل جانبا كبيرا من مجموع أعمال الناس ونشاطاتهم • وقد رُوِيَ عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو يخطب الناس فى حجة الوداع : « إنما دماؤكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم »•

ومن اللطيف أن نشير بهذه المناسبة الى أن آخر ما نزل من القرآن الكريم قبل هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم الى المدينة هى سورة المطففين • إنّها[1] : « هى السورة الأخيرة والكلمة الأخيرة التى وجهها الله (تعالى) لجاهلية قريش • والكلمة الأخيرة لا تكون الا كلمة فصل خاصة إنْ كانت بعد جدال طويل مرير لم يوصل لنتيجة غير التنافر والتخاصم والتباعد • فكانت كلمة الفصل طلب القسط • لا بين المسلمين

---

(١) القاموس •

(٢) مجلة المجتمع ص ٥٠ العدد ٢٥ ، الثلاثاء ٢٨ جمادى الاولى ١٣٩٤ هـ ١٨ يونيو ١٩٧٤ م•

والمشركين ، فلم يعد المجتمعان مجتمعا واحدا بعد أن هاجر أكثر المسلمين الى الحبشة ويثرب (المدينة المنورة) بل بين الجاهلين أنفسهم. فيالها من عظمة . حتى فى أحلك الساعات يدعو ألد أعدائه للعدل والحق. وليس معه يريدهم أن يعدلوا ، ولكن مع أنفسهم . فهل يملك دين مثل هذه العظمة ؟ » .

ومن اللطيف أيضا أن نشير الى أن كل الأوامر والنواهى فى آيات الحكمة ، وفيها النهى عن التطفيف ، قد جاءت فى جميع الأديان السماوية ولا تقبل النسخ . فعلى سبيل المثال أهلك عز وجل قوم نبى الله تعالى شعيب عليه السلام بسبب تكذيبهم وإصرارهم على أكل أموال الناس بالباطل . قال عز من قائل فى سورة الشعراء[1] : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين . اذ قال لهم شعيب ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين . قالوا انما أنت من المسحرين . وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين . قال ربى أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ، انه كان عذاب يوم عظيم ﴾ .

وعلى غرار التعقيب الذى هو من نصيب كل حبة سابقة فى عقد الحكمة هذا ، كان من نصيب هذه الآية الكريمة تعقيب يبين الطبيعة الطيبة الخيرة لوفاء الكيل والوزن ، والعاقبة الحسنة على المدى البعيد قال تعالى تعقيبا على الأمر بوفاء الكيل والوزن : ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ أى أن وفاء الكيل والوزن خير ما يتعامل به الناس وأحسن مآلا وعاقبة . فاذا كان التعامل أثناء البيع والشراء قائما على الوفاء أثناء العملية ذاتها ، كانت معاملة المشترى بناءً على ذلك قائمة على الرضا وحسن المعاملة والرغبة الأكيدة فى الوفاء . وأدّى ذلك فى النهاية الى سعادة المجتمع وراحته واطمئنانه . والعكس صحيح بطبيعة الحال. فإذا كان التعامل قائما على التطفيف فى الكيل أو الوزن وما إليهما

---

(١) آيات ، ١٧٦ — ١٨٩ .

كان الطرف الثانى بطبعه متوجسا خائفا وربما دفعه ذلك الى المعاملة بالمثل • مما يؤدى فى النهاية الى كون العَلاقة بين البائع والمشترى قائمة دائما على المشاكسة وتربص كل من الطرفين الدوائر بالآخر • وينعكس ذلك على المجتمع بعامة فتكسد السوق ويكثر العاطلون وتدب الفوضى فى الأمة وتنعدم الثقة وترفع البركة •

وحينما نبحث عن السبب الذى من أجله كان الوفاء فى عملية البيع والشراء من سمات الأمم غير الدينية المتقدمة ماديا[1] ، فانا ننتهى الى أن هذه الأمم انتهت من التجربة الى أن الوفاء هو الضمان الأكيد للكسب المستمر • وأن ديننا الحنيف ليقدم ابتداءً هذه النتيجة ، علما بأنها من أهم أسباب سيادة الأمة الإسلامية قديما ، وينبغى أن يكون المسلمون اللاحقون ، خير خلف لخير سلف • قال تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ •

لا تقفُ ما ليس لك به علم :

قال تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ الاقتفاء بمعنى التقليد والاتّباع • فالمؤمن منهى عن أن يكون وقتا من الأوقات مقتفيا وتابعا ما لا علم له به • ومعروف المصادر الأولى[2] للعلم الصحيح فى الاسلام والتشريع • وهى على التوالى القرآن الكريم والسنة المطهرة والإجماع والقياس • ومعروف أن السنة المطهرة مبينة للقرآن الكريم ومفسرة له • وقد جاء على لسان المصطفى صلى الله عليه وسلم فى خطبته بحجة الوداع مخاطبا الناس[3] : « قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه » •

ويأتى بعد القياس الاجتهاد لمن هم أهل له •

وبهذه المناسبة نقرر أن الأمة الاسلامية وجدت حاجتها عند الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة الذين كانوا فى نظر الأمة القمة من حيث

---

(١) فى عصرنا .
(٢) انظر هنا مقدمة ابن خلدون ٣٣٨ : أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات .
(٣) السيرة ٦٠٤/٢ .

الصلاح والعدالة والضبط والاجتهاد • وبعد أن كان من قبل الكثيرون الذين اقتفت الأمة آثارهم من السلف الصالح ، اكتفت الأمة بعد ذلك بهؤلاء الأئمة الأربعة الذين وجدت عندهم بغيتها على حد تعبير ابن خلدون فى مقدمته •

ونستطيع أن نقول إن القسم الأول من الآية الكريمة : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ يوضحه الحديث النبوى الشريف فقد جاء فى صحيح البخارى[1] عن النعمان بن بشير الذى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس • فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه • ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه • ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه • ألا وإن فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » •

فواجب الإنسان المسلم تنفيذا لأوامر الله تعالى وأوامر نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يرعى حول الحمى ، فان الحلال بيّن والحرام بيّن وان طريق النجاة معروف كما بينه المصطفى صلى الله عليه وسلم بوجوب التمسك بالقرآن الكريم والسنة المطهرة • ولا يليق بالمسلم مطلقا أن يكون أذنا أو أن يلبى نداء كل ناعق ، بل عليه أن يستفيد من نعمة العقل التى منّ الله تعالى بها عليه وأن يسخر هذه النعمة للسير فى الصراط المستقيم الذى سار فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم وسار على هديه فيه السلف الصالح من بعده • على المسلم أن يكون قوى الشخصية إيجابيا فى هذه الحياة محكما عقله مستفيدا من بصيرته النيرة مرشدا الى الخير فاعلا له حريصا على نقاء مجتمعه الإسلامى من كل شائبة ناهيا نفسه عن الهوى واثقا من أنه مسئول أمام الله تعالى عن كل صغيرة وكبيرة بدرت منه • بل إنه مسئول عن موقفه من كل ما سمع وأبصر ومر فى خاطره ، ومن باب أولى أن يكون مسئولا عما وراء ذلك •

وتبقى بعد ذلك أمور مشتبهة ، على الإنسان اذا لم تتضح له حقيقتها أن يسأل أهل العلم • وليس من حق المسلم مطلقا أن يتجاهل

---

(١) ١/٢٠ •

ذلك من أجل مصلحة شخصية أو نفـــع عاجل • بل عليه أن يتحرّى الحقيقة وأن يكبح من هوى نفسه الأمّارة بالسوء ، وليكن واثقا من أنه مجازى على كل صغيرة وكبيرة منه وأن الآخرة خير له من الأولى •

ونستطيع أن نفهم من كل هذه المسئوليات الملقاة على كاهل المسلم كى يتحرى الحقيقة ، أنه يُعَدّ بالإسلام إعدادا من نوع معين يهيىء لنفسه الكبيرة وشخصيته القوية أن تكونا فى مستوى كل المسئوليات مهما كان خطرها وجلالها • فليس من خلق المؤمن أن يكون يوما من الأيام ضعيفا • ونريد بالضعف فى الدرجة الأولى ضعف الإرادة والنفس والشخصية • فعلى المسلم أن يكون قويا بالحقّ دائما • وقد رُوِي عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه قال[1] : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » •

ونستطيع أن نتبين عظمة القوّة التى يريد الإسلام للمسلم أن يكون متمتعا بها ، من تأملنا للقسم الثانى من الآية الكريمة ، فى ضوء قوة الإرادة والشخصية التى أراد القسم الأول من الآية للمسلم أن يكون متمتعا بهما • قال تعالى : ﴿ ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مســـئولا ﴾ •

وأول ما يلاحظ هو أن منافذ العلم التى تعرّض لها هذا القسم من الآية ، سواء أكان العلم صحيحا أم غير صحيح ، هى المنافذ الخفية جدا الدقيقة جدا الأكثر دلالة من غيرها على ضخامة مسئولية كل إنسان يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم • وهذه المنافذ هى السمع والبصر والفؤاد •

وكى تتضح ضخامة المسئولية بذكر منافذ العلم هذه دون سواها ، فى إمكاننا أن ننتقل الى موضع آخر فى القرآن الكريم يدور فيه الحديث عن مسئولية الإنسان يوم القيامة ، وليكن ذلك من سورة يس[2] ، قال تعالى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ فالآية الكريمة تنصّ على أن جارحة النّطق تُعَطّل يوم القيامة حينما يريد لها الفعال لمـــا يريد ذلك ، كيلا تلجأ تلك النفوس

---

(١) صحيح مسلم ، ٥٦/٨ .
(٢) آية ، ٦٥ .

الى الكذب الذى اعتادته فى الحياة الدنيا • ويكون البديل عن اللسان فى هيئة اعتراف الأيدى وشهادة الأرجل بما اقترف الإنسان فى حياته • وفى موضع آخر من القرآن الكريم تكون جلود هؤلاء هى النّاطقة ، المعترفة والشاهدة إضافة الى السمع والبصر • قال تعالى[1] : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون • حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون • وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون • وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون• وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ •

فإذا عُدنا الى آية سورة الإسراء تبيّنا أنها تنص على أن الحساب جد عسير • فليست يد الانسان ورجله هى المسئولة فقط • إنّما المسئول قبل ذلك أو مع ذلك ما هو سبب فى تحريك كل من اليد والرجل وما اليهما • المسئول بنص الآية الكريمة السمع والبصر والفؤاد • فاذا عرفنا أنه ليس هناك من حاسة عدا حاسة السمع يمكن لها أن تعمل رغم رضى الإنسان • أدركنا ضخامة مسئوليته يوم القيامة • فلو كان ثمة الحاسة أو الجارحة التى تتقدم فى هذه الخاصّيّة حاسة السمع ، أو التى تكاد تفلت من سيطرة صاحبها ، لعرضت لها الآية الكريمة • ولما لم يكن ثمة شىء من ذلك ، ابتدأت الآية الكريمة بحاسة السمع دليلا على ضخامة مسئولية الإنسان وضرورة حرصه على السيطرة على سمعه ، ومن باب أولى على بصره وكل ما يأتى بعد ذلك مما هو أكثر قدرة على التحكم فيه والسيطرة عليه •

وينبغى أن نقرّر هنا أن الإنسان اذا كان مضطرا لأن يصل اليه عن طريق أذنه ما يريد وما لا يريد ، ما يحب وما يكره ، ما يثاب عليه ويعاقب بسببه ، فإن هذا الانسان ذاته ، عنده القدرة والاستعداد لأن يضع حدا يحول بينه وبين سماع ما لا يريد كيلا يأثم • وإنّ الشىء نفسه يقال عن كل من البصر والفؤاد ، إذ هدانا الدين الحنيف الى أمثل السبل دائما حينما نصادف مكرهين شيئاً نهانا عنه ديننا الحنيف • فاذا ابتدأنا بالسمع تبينا أن الإنسان بقوّة إرادته يستطيع أن يحول بين أذنه وبين

---

(١) فصلت ، ١٩ — ٢٣ .

سماعها لمـــا نهيت عن سماعه • ونضرب مثالا على ذلك بقوله تعالى[1] : ﴿ وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم اذا مثلهم ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا ﴾ والخطاب هنا للمؤمنين• وقد كان فى المجتمع آنذاك الى جانب المؤمنين المنافقون والكافرون • وقد أمِرَ المؤمنون بأن ينزهوا آذانهم عن سماع كل ما نهوا عن سماعه ، فلا يليق بهم أن يضعفوا أمام النفس الأمّارة بالســـوء التى ترتاح لسماع ما لا ينبغى سماعه ولا يجمل •

وإنّ المؤمن مأمور بأن ينزه بصره ويغض طرفه عن كل ما نهى عنه • ولو فرض أن كانت النظرة الأولى غير المتعمدة له ، فان الثانية عليه ، كما جاء فى الحديث الشريف •

وإنّ الشىء ذاته يقال عن الفؤاد • فلو أن طائفا مسّه فليســتعذ المؤمن بالله من الشيطان الرجيم • جاء فى صحيح البخــارى[2] أنه استبّ رجلان عند النبى صلى الله عليه وسلم فغضب أحدهما فاشــتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغيّر • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذى يجد » • فانطلق اليه الرجل فأخبره بقول النبى صــلى الله عليه وسلم وقال : « تعــوّذ بالله من الشيطان » • وهذا التوجيه النبوى السديد تطبيق لما جاء فى العديد من آيات الذكر الحكيم فى هذا الشأن • قال تعالى[3] : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، انه سميع عليم • ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ﴾ وقال تعالى[4] : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا ﴾ وقال تعالى[5] : ﴿ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم • انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون • انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ •

---

(١) النساء ، ١٤٠ .

(٢) ١٩/٨ .

(٣) الأعراف ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٤) الاسراء ، ٨٢ .

(٥) النحل ، ٩٨ — ١٠٠ .

وقال تعالى[1] : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين • وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ •

لا تمشِ فى الأرض مرحا :

قال تعالى : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ، انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ •

من البيّن أن هذه الآية الكريمة تتكون من قسمين • ومن اللطيف أن التعقيب فيها أطول من النهى ذاته • وسبق أن مر بنا الشىء ذاته فى الآية الكريمة التى تنهى عن الاقتراب من جريمة الزنا • وهذا يعنى أن الآية الكريمة التى تنهى عن الاختيال تسير على غرار ما سبق من آيات ، حيث انتهت كل حبة فى عقد الحكمة بتعقيب يطول أو يقصر • كما أنّ التعقيب الطويل هنا يعنى أن السيئة التى تنهى الآية عنها فى حاجة الى توضيح جوانبها وتبيين أبعادها •

ومن الجائز أن نقول : إنّ هذه الآية الكريمة ، آخر حبة غير مسبوقة بشىء من جنسها فى عقد الحكمة هذا ، على اعتبار أن آيات الحكمة هذه قد توجت كلها بآية تعقيبية ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ وعلى اعتبار أن الآية الأخيرة والنهائية ، والتى كانت بمثابة مسك الختام ، انما تنهى عن الشرك بالله تعالى على غرار النهى الذى ابتدأت به آيات الحكمة •

ونستطيع أن نعتبر ﴿ مرحا ﴾ حالا ، وذلك فى قوله تعالى بصدر الآية الكريمة : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ﴾ أى لا تمش فى الأرض مرحا ، — بكسر الراء — كما تقول : جاء زيد ركضا أى راكضا[2] والمرح هو شدة الفرح والسرور بالراحة والاغتباط • « وكأنه ضمن معنى الاختيال لأن غلبة السرور والفرح يصحبها التكبر والاختيال[3] •

وحينما يكون ثمة نهى عن الاختيال والتبختر فى المشية والتكبر

---

(١) المؤمنون ، ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) البحر المحيط ، ٣٧/٦ .
(٣) البحر المحيط ، ٣٧/٦ .

والغطرسة ، يفهم فى المقابل الأمر بالوقار والقصد فى المشى والتواضع وخفض الجناح للمؤمنين .

واذا أردنا استعراض طرائق المختالين الفخورين فى المشى ، استطعنا أن نعيدها الى نوعين رئيسيين أشار اليهما القسم الثانى فى الآية الكريمة . النوع الأول : أن يرجم المختال الفخور الأرض أثناء مشيه ، بعقبيه وما جاورهما فيصحب نزوله على الأرض بثقل جسمه صوت من نوع معيّن وربما اهتز له المكان إنْ كان يمشى على غير الأرض الصّلبة ، بقصد أن يلفت اليه الأنظار ، شاعرا فى أعماقه بأنه أرفع من الآخرين قدرا وأجل شأنا وخطرا .

وما الذى يلاحظ من أثر فى الأرض التى يمشى عليها هذا المختال الفخور ذلك النوع من المشى ؟ يلاحظ كأن عقبيه قد غاصا فى الأرض كل مرة ينزل عليها بعقبيه أو كعبيه . وهل المختال الفخور قانع فى أعماقه بكل هذه الضجة التى أثار أثناء المشى أم أنه يطمع فى المزيد ؟ هو ولا شك يطمع فى المزيد ، لأنه يحسّ فى أعماقه أنه أعلى شأنا من كل عباد الله تعالى . ولو نظرنا من زاوية الأثر الذى يحدثه فى الأرض أثناء مشيه عليها ، لانتهينا الى أنه لا يمانع بل يتمنى لو أنه كان من القدرة والضخامة والثقل بحيث يستطيع أن يحدث فى الأرض التى يمشى عليها ويدوس آثارا أكبر وأكبر . فإذا كان أثناء مشيه على عقبيه قد أحدث فى الأرض آثارا عميقة — من حيث عقباه وما جاورهما — فانه يتمنى — وهو الذى يظن أن ذلك هو الدليل على رفعة شأنه — لو أنه أحدث بكل خطوة يخطوها خرقا فى الأرض أو عُمْقا . فهل مثل هذا التفكير يصدر من انسان سليم أم أنه يصدر من إنسان مريض النفس والعقل معا ؟ هو ولا شك يصدر من إنسان مريض بكل ما تحمل هذه اللفظة من معان ، لأن فعله ببساطة يؤدى الى غضب الله تعالى وسخطه . وإذا أبغض الله تعالى عبدا من عباده أوجد له البغضاء فى السماوات والأرض . ولهذا نجد المتكبر المختال الفخور بغيضا الى عباد الله تعالى وأحبائه دائما .

وهنا نجد القسم الثانى فى جزئيته الأولى : ﴿ انك لن تخرق الأرض ﴾ يتناول هذا النوع من المشى بالتقريع والتبكيت ، موقفا صاحبه على حقيقة قدر نفسه ، منبها له الى سوء تفكيره وزيف أوهامه . وكأنه

يسأل فى تهكم لاذع • أتريد أن ينتهى بك الأمر وأنت تضرب الأرض بعقبيك الى أن تخرق الأرض التى عليها تمشى ؟ وحيث إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك وإن كان قد توهم من قبل ، فإنه يكاد يصعق لهول إيقافه غير المتوقع والمنتظر على هذه الحقيقة • إنه ضعيف وعاجز ولكنه مختال وفخور ومغرور • فالأولى به أن يعود حالا إلى الطريق المستقيم • طريق المؤمنين التائبين العابدين المستغفرين الخافضى أجنحتهم للمؤمنين •

أما النوع الثانى من المشى البغيض الى الله تعالى والى عباده عز وجل ، فهو ذلك النوع من المشى الذى يعتمد أثناءه المختال الفخور على صدرى قدميه • ويكاد لصلفه وغروره وتكبره يمشى على رءوس قدميه • بل إن أوهامه التى لا حد لها تجعله فى حكم المتمنى أو المتخيل لو أنه ارتفع فى مشيه من على سطح الأرض أو فات رءوس خلق الله تعالى • أو ليس هو الذى يعتقد فى أعماقه الخاطئة أنه يفضل الآخرين ويمتاز عليهم جميعا فى كل شىء ؟ أو ليس خليقا به ، فى اعتقاده السقيم ، لو أنه انفرد بنوع متميز من القدرة على الحركة والانتقال ، ذلك التميز الذى رمز له ، بمشيه ، خلافا لعباد الرحمن ، على صدور قدميه ، وبتبختره واختياله ، متمنيا فى أعماقه لو قدر له أن ينفرد بين العباد بسطة جسم وضخامة هيكل ، كى يعرفه الناس على حقيقته ، دون أن يضطر هو لأن يلجأ — كما يفعل الآن — للتعبير عن ذلك بمشيه على صدرى قدميه ، ورفعه للعديد من أجزاء جسمه المطاوعة ، وشموخه برأسه وأنفه ! بل إنه ليلوح أن هذا المختال الفخور غير قانع بكل هذا • إنه ليتمنى فى أعماقه التى ليست لها نهاية ، أن تكون بسطة جسمه وضخامة هيكله فى هيئة الجبل ! ولكن بما أن من الجبال ما هو أقرب الى الصغر وما هو أميل الى الكبر ، فالحقيقة أن نفس المختال الفخور المريضة ، تتمنى أن لو كان جسمه فى ضخامة أعلى الجبال طولا • فبهذا يمكن له أن يلقى نظرة الازدراء الحقيقية على عباد الله تعالى ، بدلا من نظرة الازدراء التى يلقيها الآن على عباد الله تعالى والتى لا يحس بها الا بعض العباد ، لأنه حينما يكون كأعلى الجبال طولا ، فان عباد الله تعالى مضطرون حينما ينظرون اليه أن يرفعوا رءوسهم اليه حتى ليسقط كل ما على رءوسهم من أغطية • وفى هذه الحال ، يقبلون نظرة استهانته بهم حقيقة مسلمة غير قابلة للأخذ والرد •

إنّ هذا كله ، غيض من فيض ما تجيش به نفس كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب . ولمّا كان كل ذلك خطأ صراحا ، ولمّا كان هذا المتكبر وأمثاله فى حاجة الى أن ينبّه بكل بعنف وقسوة لغيّه البغيض الذى هو سائر فيه . فإنّ الآية القرآنية الكريمة عنفته ووبختــه وبكتته . وكأنها تقول له : على رِسْلِك أيها المختال الفخور . أيها المخدوع المغرور . عليك أن تعرف حقيقة نفسك ، فما أنت الا من تراب وممسك بك ، مثل غيرك ، تراب . أنت وسواك من عباد الله تعالى سواســية كأسنان المشط . وإنما يكون التفاضل بالتقوى وليس بالحَسَب والنَّسَب والمال والجاه والسلطان . أتظن أنك بحسبك ونسبك أعلى من الآخرين حتى انك لترى أنك مستحق لأن تكون فى الفخامة كأعلى الجبــال . على رِسْلِك . إنّ كل ذلك غير جائز ولا ممكن . بل إنّ الطريق الذى تسلكه خطأ كله . فالأولى بك أن تهجر هذا الطريق وتقلع عن هــذا النوع البغيض من المشى وأن تستأنف السير فى طريق عباد الرحمن الذين من أهم صفاتهم أنهم يمشون على الأرض هونا .

هذان هما النوعان الرئيسيان من أنواع المشى البغيض . وفى تقبيحهما تقبيح لمــا دونهما من أنواع المشى السيىء التى شملها كلها القســم الأول من الآية الكريمة : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ﴾ .

ومما هو دليل على أن النهى عن التبختر والاختيال فى المشى ، إنّما يراد منه ما يرتبط به أيضا من ملابسات وما يتعلق به من أســباب ونتائج ، على الإنسان أن يصلح كل ذلك بشأن نفسه كى يكون عضواً صالحا فى الأمة هو أننا بالتحول الى الصفة المقابلة والتى هى من نصيب عباد الرحمن ، أعنى المشى على الأرض هونا ، على نحو ما جاء فى قوله تعالى[1] : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ نتبين أن صفة المشى على الأرض هونا والكلام الطيب الذى يسلم بسببه عباد الرحمن من الجاهلين السفهاء ، إنّما هما صــفتان ظاهرتان بطبعهما وتفرضان وجودهما فرضــا وغير قابلتين للإخفاء . وبما أنهما صفتان بطبعهما الظهور خلافا للأعمــال الأخرى التى قد يرتبط بظهورها التورط فى الرياء ، وبما أنهما صفتان عزيزتان لا تتحققان الا للنزر اليسير من الناس الذين خصهم الله تعالى بالحِلْم

---

(١) الفرقان ، ٦٣ .

وبالحظ العظيم ، فانه من البين لكل ذى بصيرة نيرة أن هاتين الصفتين اللتين تحققتا فى عبد من عباد الرحمن ، إنما هما نتيجة حسنة وثمرة طبيعية للكثير والكثير من الأعمال الطيبة والترويض للنفس على فعل الخيرات والإرغام للنفس على أن تقطع من الشهوات وتنصرف عن الهوى حتى فازت برضى الله عز وجل وقد ظهر شىء من رضى الله تعالى عن هذه النفس وحبه لها فى مشى صاحبها على الأرض هونا وطيب لسانه • هذا الى العديد من النعوت الأخرى التى هى من نصيب عباد الرحمن على نحو ما جاء فى آيات سورة الفرقان •

وبما أن كلا من الاختيال فى المشى والتواضع فيه ، إنما هما ثمرة لما تنطوى عليه كل من نفس المخدوع عن نفسه المغرور ، ونفس التقى الورع ، فهذا يعنى أن النهى عن الاختيال والفخر ، نهى فى حقيقته عن كل الخصال السيئة التى هى سبب مباشر لذلك النوع من المشى البغيض إلى الله تعالى والى عباده عز وجل • ولو فتشنا فى ثنايا نفس هذا المختال الفخور ، لتبين أنها نفس تفوح منها رائحة الكبر المقيت ، والغطرسة بالباطل والتعالى على عباد الله تعالى • وقد كان الأولى بالذى منّ الله تعالى عليه بما يظن أن نصيبه منه أكبر من نصيب سواه أن يحمد الله تعالى ويشكره ويتوب اليه ويستغفره لا أن يتعالى على عباد الله تعالى • قال عز من قائل فى محكم كتابه[1] : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الانسان لظلوم كفار ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد ﴾ وإنما يكون شكر النعمة باحسان الانسان الى نفسه والى عباد الله تعالى لا أن يظلم نفسه ويظلم الآخرين •

والحقيقة أن هناك إجماعا بين ذوى الرأى بأن الكبر والذل صنوان ! وكيف يكون الكبر والذل صنوين وهما على طرفى نقيض ؟ الحقيقة أنهما وان كانا على طرفى نقيض الا أنهما يصدران من نفس واحدة متناقضة فى ذاتها ، لأن هذه النفس لم تنتفع من تعاليم الدين الذى أكمله الله تعالى ورضيه لخير أمة أخرجت للناس • وحينما لا تمتلىء النفس بتعاليم السماء فانها ستمتلىء بالضرورة بما يصلها من تعاليم أخرى تخطىء كثيرا وتصيب قليلا • ولو نظرنا الى شخص متكبر

---

(١) ابراهيم ، ٣٤ .
(٢) ابراهيم ، ٧

واحد ، لوجدناه يستمد هذه التصرفات من نفسه الأمارة بالسوء والتى اتبعت طريق الشر وهجرت طريق الخير • وحيث إن هذه النفس انما ارتضت مقاييس ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، فان أول ما يلاحظ على هذه النفس أنها بسبب تناقضها فى ذاتها تجمع بين النقيضين الكبر والذل فى آن واحد • إنها بقدر ما تتعالى على من تظن أنهم أقل منزلة ، هى تذل لمن تظن أنهم أعلى منزلة ناسية المساواة فى الاسلام وأنه لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى وأن المؤمنين اخوة •

مما سبق يتضح أن الآية الكريمة حينما تنهى المسلم عن أن يكون مختالا فخورا ، فإنها تريد منه أن يتخلص من كل الصفات السيئة التى نهى عنها القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وأن يتحلى بالأخلاق الكريمة فقد جاء عن المصطفى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى[1] : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ • وسئلت السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن • وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » • وليس الكبر والتعالى على عباد الله الا من سوء الخلق • نص على ذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة •

ومادام النهى عن الاختيال فى المشى يعنى الأمر بالمشى على الأرض هونا كما جاء فى آية سورة الفرقان • فإننا نود أن نقف عند حرف الجر « فى » من قوله تعالى فى الاسراء : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ﴾ وعند حرف الجر ﴿ على ﴾ الذى يقابله من قوله تعالى فى الفرقان : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » • لماذا جاء حرف الجر « فى » مرة ، وحرف الجر « على » مرة أخرى ؟ •

الحقيقة أنه بالنظرة المقارنة ، يتضح أن حرف الجر على يدل على الطريقة الهينة اللينة اللطيفة لمشى عباد الرحمن على الأرض هونا ، دليلا على السمت والوقار ورمزا للخشوع والخضوع • وحينما تكون مشية عباد الرحمن تلك صفاتها ، وننتقل الى الصفات المقابلة لمشية المختالين الفخورين التى من أهمها رجم الأرض أثناء المشى بالعقبين أو المشى على صدرى القدمين مع اختلال التوازن واضطراب الحركات

---

(١) القلم ، ٤ .

فانه يتبين أن حرف الجر « على » فى قوله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ﴾ مسعف للقول « هونا » على تأدية معانيه الجميلة ومراميه اللطيفة البعيدة • بل إنه مهيىء لمجىء القول « هونا » الذى يدل على أن عباد الرحمن أثناء مشيهم على الأرض يقتصرون على النافع والضرورى منه ، ولا يكادون يحدثون من آثار فى الأرض التى عليها يمشون سوى الضرورى اللازم منها ، مصحوبين بالوقار متحلّين بالكمال والجلال •

فاذا انتقلنا الى حرف الجر « فى » من قوله تعالى : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ﴾ تبينا أن هذا الحرف هو المسعف للقسم الثانى من الآية الكريمة على تأدية معانيه ومراميه • بل إنه مهيىء لمجىء ذلك القسم ودال عليه • وذلك لأن حرف الجر « فى » قادر على الإيحاء بأن المختال الفخور يحبّ ذلك النوع من المشى ، لذات المشى غالبا وليس لأن وراءه مصلحة أو منفعة • لأن هدفه فى الغالب الأعم أن يظهر نفسه للآخرين جاذبا انتباههم اليه • موحيا اليهم بطريقة مشيه البغيض ، بعلو شأنه وارتفاع منزلته الى آخر تلك الأوهام التى لا توجد الا فى مخيلته • وحيث إنه ليس هناك الهدف السامى من ذلك المشىء • بل ليس هناك ما يستحق أن يسمى هدفا ، لذلك فالذى يسيّر المختال الفخور ويوجّهه ، هوى النفس الأمارة بالسوء • إنه يمشى دون هدف ، ويسير فى كل اتجاه حيث يزعج الناس ويثقل عليهم بطريقة مشيه العجيب وتكبره البغيض وفخره المقيت • وهكذا يتضح أن مكان حرف الجر « فى » هو القسم الأول من آية سورة الإسراء لقدرته على الدلالة على حيرة المختال الفخور وتسكعه وتخبطه ، هذا الى الصفات السيئة التى تنطوى عليها نفسه بين جنبيه ، وأن مكان حرف الجر « على » هو آية سورة الفرقان ، لقدرته على الدلالة على الهدف السامى النبيل لعباد الرحمن وغايتهم السامية وطريق سيرهم الواضح المعالم • هذا الى النعوت الحسنة التى يتحلّون بها والتى تنطوى عليها نفوسهم الآمنة المطمئنة باذنه تعـــالى •

جاء عن المصطفى صلى الله عليه وسلم فى آل عمران[1] قوله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من

---

(١) آية ، ١٥٩ .

حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر • فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين ﴾ وقال تعالى[1] : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم • ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ وبعد أن أمر لقمان ابنه بألا يشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ، جاء على لسانه قوله تعالى[2] : ﴿ يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله • ان الله لطيف خبير • يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، ان ذلك من عزم الأمور • ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور • واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ وجاء خطابا للمصطفى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى[3] : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ وقوله تعالى[4] : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ وقد بيّنت آية سورة الفرقان[5] • فى وصف عباد الرحمن الطريقة التى ينبغى أن يمشى فيها المؤمن • قال تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ •

فإذا تحولنا الى السنّة المطهّرة ، تبينا أنها تدعو دائما وأبدا الى كل ما ينفع المؤمنين ويوحّد من صفوفهم • فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[6] « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » • ومعروف أن الكبر والتّعالى على عباد الله تعالى منفر للقلوب مصدع للصفوف مفرق للجماعات ، لذا فقد كان فى السنة المطهرة للحض على حسن الخلق ومكارم الأخلاق النصيب الأوفى • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ خياركم أحاسنكم أخلاقا »[7] وقال : « إنّ شر

---

(١) النساء ، ٣٦ .
(٢) لقمان ، ١٦ — ١٩ .
(٣) الحجر ، ٨٨ .
(٤) الشعراء ، ٢١٥ .
(٥) آية ٦٣ .
(٦) البخارى ، ١٢/٨ .
(٧) البخارى ، ١٦/٨ .

الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره »[1] وقال أبو ذر رضى الله تعالى عنه لما بلغه مبعث النبى صلى الله عليه وسلم لأخيه: اركب الى هذا الوادى فاسمع من قوله فرجع فقال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق[2] وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أخبركم بأهل النار • كل عتل جواظ[3] مستكبر »[4] وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية فأدركه أعرابى فجبذ بردائه جبذة شديدة • قال أنس : فنظرت الى صفحة عاتق النبى صلى الله عليه وسلم وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ثم قال : يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك • فالتفت اليه فضحك ثم أمر له بعطاء[5] وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف • ولا لم صنعت ولا ألا صنعت[6] •

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذا لم تستح فاصنع ما شئت •

من النصوص السابقة يتبين شىء من الحرص الكبير للإسلام الحنيف على مكارم الأخلاق • وبما أن الكبر والاختيال والفخر من سيئها ، فلا يليق شىء من ذلك بالمؤمن الذى يجب أن يكون غاية فى التواضع للمؤمنين رقيق القلب لين الجانب موطأ الاكناف والجناح •

كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها :

هذه الآية الكريمة يصح أن يقال عنها إنها تعقيبية • قال تعالى : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ • والمعنى أن لكل قضية عرضت لهـا آيات الحكمة وجهين ، وجها حسنا وآخر سيئا • فكما كانت الدعوة الى كل حسن كان النهى عن كل سيء صراحة أو ضمنا ، لأن الأمر بالحسن يعنى النهى عن القبيح ولأن النهى عن القبيح يعنى الأمر بالحسن •

---

(١) البخارى ، ١٦/٨ •
(٢) البخارى ، ١٦/٨ •
(٣) الجواظ : المستكبر •
(٤) البخارى ، ٢٤/٨ •
(٥) البخارى ، ٢٩/٨ •
(٦) البخارى ، ١٧/٨ •

وآيات الحكمة هذه مجموعة من الأوامر والنواهى ، والآية التعقيبية هذه تنص على أن الجانب السّيء لكل قضية مكروه عند الله عز وجل وينبغى أن يكون كذلك عند عباده ، ونحن فى حقيقة الأمر بصدد اثنى عشر أمرا ونهيا رئيسيين يمكن أن نركزها فيما يلى :

أولا : الأمر بتوحيد الله عز وجل وعبادته وَحْدَهُ لا شريك له ، فلم يخلق الله تعالى الجن والانس الا ليعبدوه . والجانب السّيء لهذه القضية هو الإشراك به عز وجل . وبما أن هذه القضية أهم القضايا التى عرضت لها آيات الحكمة ، لذا فقد جاءت الإشارة الى هذه القضية مرات ثلاثا . كما أن آيات الحكمة ابتدأت بواحدة وانتهت بواحدة .

ثانيا : الأمر بالاحسان للوالدين وبرّهما . وبخاصة حينما تتقدم السن بأحدهما أو كليهما . والجانب السىء لهذه القضية عقوق الوالدين . وأكبر دليل على أهمية هذه القضية الحيوية وثواب الممتثل لأوامر الله تعالى وعقاب غير الممتثل أن الدعوة الى توحيد الله تعالى تقرن بها أكثر من مرة فى القرآن الكريم بالدعوة الى بر الوالدين ، ومن ذلك آية الحكمة هذه . والجمع بين هاتين الدعوتين بالذات وما يعنيه التّمشّى بمقتضاهما وما يعنيه التمشى بعكس مقتضاهما دليل على قيمة كل من توحيد الله تعالى وبر الوالدين وعلى الخسارة التى ليس وراءها خسارة فى التفريط فيهما أو فى احداهما . أما التفريط فى أولاهما فقد قال بشأنه عز من قائل : ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وأما التفريط فى ثانيهما فقد نص الحديث النبوى الشريف على أنه كبيرة تلى فى العظم الشرك بالله عز وجل .

ثالثا : الدعوة الى إيتاء كل من ذى القربى والمسكين وابن السبيل حقه . ولما كانت الدعوة تتّجه باطّراد من القريب الى البعيد ، ومن الكثير الاحتمال الى القليله ، فذو القربى أقرب للمخاطب من المسكين وابن السبيل ، والمسكين يحتمل وجوده بأكثر من المسافر المنقطع ، فهو المراد بابن السبيل ، لذا حسن أن يوضع الحد السليم الصحيح الذى لا يليق بالمنفق أن يتخطاه . وهذا الحد يتمثل فى النهى القرآنى عن التّبذير .

وما حق هذه الفئات الثلاث وبخاصة أولو القربى حينما يكون المرء معسرا ؟ حق هؤلاء أن يقول لهم المرء حُسْنا • وقد روي عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه قال[1] : « اتقوا النار ولو بشق تمرة • فإن لم تجده فبكلمة طيبة » وقال عليه الصلاة والسلام[2] : « الكلمة الطيبة صدقة » •

والوجه السيء لهذه القضية هو أن يحرم الإنسان هذه الفئات حقها الذى جعله الله تعالى لها فى ماله ، هذا فى حالة اليسر • أو أن يكون الانسان قاسي الفؤاد مر اللسان فى حالة العسر • وكما أن الإنسان مثاب بسبب الوجه الأول الحسن للمعاملة بشطريه ، فإنه معاقب بسبب الوجه الثانى السيء للمعاملة بشطريه كذلك •

رابعا : النهى عن التبذير والبخل.فبما أن الحبة الثالثة فى عقد الحكمة تدعو الى ايتاء ثلاث فئات من البشر حقوقهم ، وكل هذه الفئات خارجة عن دائرة ذات المخاطب ، هذا الى أن الانتقال من فئة الى أخرى لا يقترب نحو الذات إنما يبتعد باطراد عنها ، لذا حسن وضع نهاية يقف عندها الموسر • وقد تمثل ذلك فى النهى عن التبذير حرصا على ضمان مصلحة كل من ذى المال وذى الحاجة • وبما أنه يخشى أن يتحول صاحب الوعد بخيلا ، بعد أن منّ الله تعالى عليه من فضله ، لذا حسن هذه المرة أن ينهى الإنسان عن البخل • فالتبذير والبخل هما الوجه السيء لهذه الحبة فى عقد الحكمة • أما الوجه الحسن فهو الاعتدال فى الإنفاق وهو الطريق الوسط الطرفين السيئين •

خامسا : النهى عن قتل الأولاد بسبب الفقر الواقع بالفعل أو المتوهم • وقد تعلقت آية الحكمة هنا بالفقر الواقع فعلا ، وآية سورة الأنعام بالفقر المتوهم وقوعه • فنحن إذن بصدد رابطة قوية ، تشد حبة الحكمة هذه الى سابقتها بل الى سابقتيها المتعلقتين بالإنفاق والمال • واذا كان الوجه السيء لهذه القضية هو قتل الذرية أو وأد البنات بالذات فان الوجه الحسن هو تنشئة الذرية وبخاصة البنات التنشئة الإسلامية الصالحة • وقد أوصت السنة المطهرة المبينة للقرآن بالبنات خيرا •

---

(١) البخارى ، ١٤/٨ .
(٢) البخارى ، ١٤/٨ .

سادسا : النهى عن الاقتراب من جريمة الزنا • لأنها فى حقيقتها قتل لنفوس بريئة • فلو فُرِضَ أن الطفل ثمرة الاتصال غير الشرعى قدّ قدر له أن يرى نور هذه الحيـــاة ، فسيكون ميدانا لأنواع الشقاء وصنوف العذاب • وأكبر دليل على أن الدين الحنيف ينزل جريمة الزنا منزلة قتل النفس التى حرم الله تعالى الا بالحق ، هو أن النهى عن ارتكاب هذه الفاحشة يتوسط النهى عن قتل الأولاد ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، ومعروف أنه يحل دم المحصن الزانى • والسبب الأول فى هذه النظرة هو أن أىّ اتصال سواء أكان مشروعا أم غير مشروع ، يعنى احتمال الإنجاب • وكونه غير مشروع يعنى عذاب البراعم الطاهرة البريئة • هذا ان قدر لها ألا تتجرع الموت ولا يذوقه منها عضو بعد عضو •

واذا كان الوجه السيىء لهذه القضية هو ارتكاب جريمة الزنا أو الاقتراب من أسبابها ودواعيها ، فان الوجه الحسن لهذه القضية أن يتزوج من استطاع الباءة ويُعان على ذلك من قبل الأمة أو أن يستعفف حتى يغنيه الله تعالى من فضله ، عليه فى هذه الحالة بالصوم فانه له وجـــاء •

سابعا : النهى عن قتل النفس التى حرّم الله تعالى الا بالحق ، ونهى ولى المقتول عن الإسراف فى القتل ، بأن يقتل غير القاتل إضافة الى القاتل ، بل على الولى أن يلجأ الى السلطان المأمور بنصره والذى سيأخذ له حقه من القاتل. فإن شاء اقتصّ وإن شاء قبل الدية وان شاء عفا • كما أن الانسان منهىّ عن أن يضع نهاية لحياته هو ، لأنه ليس ملك نفسه • فالوجه السيىء لهذه القضية يتمثل فى قتل النفس التى حرم الله الا بالحق ابتداءً أو انتقاما والوجه الحسن لهذه القضية يتمثل فى إحياء النفس الإنسانية ، فمن أحيا نفسا واحدة كأنما أحيا النـــاس جميعا ، ويتمثل أيضا فى أخذ ولىّ المقتول حقه عن طريق السلطان ، والسلطان فقط •

ثامنا : النهى عن الاقتراب من مال اليتيم الا بالتى هى أحسن •فالوجه الحسن لهذه القضية رعاية مال اليتيم ، فإذا كان الولى غنيا فليستعفف ، وإذا كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، والوجه السيىء لهذه القضية أكل أموال اليتامى ظلما •

تاسعا : الأمر بالوفاء بالعهود • فالمؤمن مطالب بأن يفى بالعهود والمواثيق دائما وأبدا حتى ولو لم يكن الطرف الآخر مسلما • وإذا كان الوفاء بالعهود مطلوبا بشأن البشر ، فمن باب أولى أن يكون لازما فى حق خالق البشر جل وعلى • فالوجه الحسن لهذه القضية الوفاء بالعهود ، والوجه السيء نقض العهـــود •

عاشرا : الأمر بالوفاء فى الكيل والوزن • فالوجه الحسن لهذه القضية الوفاء أثناء عملية الكيل أو الوزن ، وما اليهما — والوجه السيىء لهذه القضية تطفيف الكيل أو الوزن وما اليهما •

حادِيَ عشر : النهى عن اقتفاء الانسان ما لا علم له • وهذا الوجه السيىء لهذه القضية • والوجه الحسن لها هو التمسك بكل من القرآن الكريم والسنة المطهرة • يلى ذلك الإجماع والقياس • وأخيرا يأتى الاجتهاد الذى لا يصح الا لمن هم أهل له •

ثانِيَ عشر : النهى عن الاختيال أثناء المشي • وهذا هو الوجه السيىء لهذه القضية • أما الوجه الحسن لها فهو المشى على الأرض هونا •

وحينما ننظر الى هذه الحبة فى عقد الحكمة من زاوية أنها غير مسبوقة بشيء من جنسها ، فانا نستطيع أن نقول انهـــا الحبة الأخيرة فى عقد الحكمة • وحينما ننظر الى الآية الأخيرة التى ختمت بها آيات الحكمة والتى تنهى عن الاشراك بالله تعالى غيره ، فانا نستطيع أن نقول ان هذه الآية الأخيرة تقدم الاشارة الثالثة والأخيرة التى تتعلق بأهم قضية عرضت لهـــا آيات الحكمة ألا وهى قضية توحيد الله تعالى بالعبادة • وبنـــاءً على ذلك يمكن القول : ان آيات الحـــكمة ابتدأ عقدها وانتهى بالدرة التى تدعو الى عبادة الله تعالى وَحْدَهُ لا شريك له • فمع هذه الدرة أو خاتمة عقد الحكمة •

خاتمة عقـــد الحكمة :

قال تعالى : ﴿ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا﴾ •

هذه الآية الكريمة تتكون من قسمين • القسم الأول يشير الى الحقيقة القائمة من أن فى القرآن الكريم الكثير والكثير من قضايا الحكمة • وقد اشتمل عقد الحكمة من سورة الاسراء على بعض تلك القضـــايا « وكانت هذه التكاليف حكمة لأن حاصلها يرجع الى الأمر بالتوحيد

وأنواع الطاعات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والعقول تدل على صحتها . وهى شرائع فى جميع الأديان لا تقبل النسخ.وعن ابن عباس أن هذه الآيات كانت فى ألواح موسى عليه السلام ، أولها : لا تجعل مع الله الها آخر . قال تعالى : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ﴾[1] » .

والقسم الثانى فى الآية الكريمة ينهى عن أن يشرك به عز وجل. ونود أن نلقى نظرة مقارنة بين النهى عن الشرك فى أولى آيات الحكمة وفى آخرها . ومن البين أن ثمة اتفاقا بين صدرى النهيين عن الشرك . أما العجزان فمختلفان . جاء فى الآية الأولى قوله تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا ﴾ وجاء فى الآية الثانية قوله تعالى : ﴿ ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا ﴾ .

وبما أن الذم انما يكون فى العادة بسبب ارتكاب الأمر القبيح أو أثناء ارتكابه . وبما أن الخذلان هنا بمعنى تخلى الآلهة العاجزة عن الذى اتخذها من دون الله تعالى انما يكون فى كل من الدنيا والآخرة . فمن الجائز بناءً على ذلك أن نقول : إن هذا التصوير الأول لحال المشرك ينطبق على حاله فى كل من الدنيا والآخرة . فالذم من نصيبه فى كل من الدارين والخذلان نصيبه فى كل من الدارين كذلك . فاذا تحولنا الى التصوير الثانى والأخير لحال المشرك فى قوله تعالى : ﴿ فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا ﴾ فانا نستطيع ببساطة أن ننتهى الى أنه خاص بيوم القيامة ، حيث يلقى المشرك فى نار جهنم . وقد ناسب هذا الالقاء فى نار جهنم كلٌ من اللوم والدحر . فاللوم ، وإن كان يصح أن يكون أثناء القيام بالقبيح ، فانه وبخاصة فى هذه المناسبة ألصق بفترة الانتهاء من القبيح . فالدار الآخرة دار الجزاء والدحر ، بمعنى الطرد من رحمة الله تعالى ، ألصق بتلك الفترة وأدل على ضلال السعى والخسران المبين وسوء المنقلب والخاتمة .

وتبقى لنا بشأن آيات الحكمة هذه نظرتان . النظرة الأولى خاصة بالتعقيبات ، فبالإضافة الى أن كل قضية عرضت لها آيات الحكمة قد انتهت بتعقيب ملائم يطول أو يقصر ، فان هناك ثلاث آيات تعقيبية : الأولى جاءت عقب الدعوة الى توحيد الله تعالى وبر الوالدين . وهذه

---

(١) البحر المحيط ٣٨/٦ .

أكبر دليل على منزلة الوالدين فى الإسلام وأن الإحسان اليهما يأتى بعد طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم • قال تعالى تعقيبا على هاتين القضيتين الهامتين : ﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا ﴾ • والآية الثانية التعقيبية جاءت على إثر الإشارة الى الحقوق ، وبالدرجة الأولى المالية لكل من الانسان نفسه والأقربين والمساكين وأبناء السبيل • وقد جاء تعقيبا على هذه الحقوق قوله تعالى : ﴿ ان ربك يبسط الرزق لمن يشـــاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ • وبعد الإشارات الى قيمة النفس التى خلقها الله تعالى والنهى عن قتلها بطريق مباشر أو غير مباشر ، وبعد الأمر بالوفاء فى كل الصور والنهى عن اقتفاء الإنسان ما ليس له به علم وعن الاختيال أثناء المشى ، جاءت الآية التعقيبية الأخيرة التى يصح أن ينظر اليها نظرة خاصة باعتبار أن أكثر القضايا المذكورة بين هذه الآية والآية التعقيبية السابقة متعلقة بالنواهى • فيقال إنها تنص على ما لهذه القضايا المنهيّ عنها من سيّىء الوجوه، كما يصح أن ينظر اليها نظرة عامة ، ولعل هذا هو الراجح ، فيقال إنّ المراد بها كل القضايا التى عرضت لها آيات الحكمة • فكل وجه سيىء لأية قضية مكروه عند الله عز وجل ، وينبغى اجتنابه • وفى ضوء هذه النظرة العامّة ســبق أن استعرضنا كل القضايا الاثنتى عشرة التى عرضت لها آيات الحكمة • قال تعالى : « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » •

والنظرة الثانية متعلقة بطبيعة الترابط بين حبّات عقد الحكمة • إنّ التماسك قويّ بطبعه بين القضيتين الأوليين ، قضية التوحيد وقضية بر الوالدين • وقد هيأت القضية الثانية لانتقال الحديث الى العلاقات التى تليها متانة وأهمية ابتداءً بذوى القربى فالمساكين فأبناء السبيل •

وبتأملنا للقضايا التى عرضت لها آيات الحكمة ابتداءً من إيتاء ذوى القربى حقوقهم حتى نهـــاية الحبة الســـابعة فى عقـــد الحكمة يتبين أن هنـــاك رباطين، كل منهما خاص بمجمـــوعة • الأول رباط الحقوق أو المال • والثانى رباط الدم أو ما فى حكمه • وتفسير ذلك هو أن الرباط الأول يربط ثلاثا من القضايا هى قضية ذوى القربى والمساكين وأبناء السبيل ، وقضية الإنفاق ، وقضية وأد البنات بسبب الفقر الحاصل أو المتوهّم • وأنّ الرباط الثانى يربط القضيتين الأخريين ، قضية النهى

عن ارتكاب الفاحشة ، وقضية النهى عن قتل النفس التى حرّم الله تعالى الا بالحق .

وحيث إنّ قضية وأد البنات ذات شقين ، شق الدم وشق المال . وحيث إنّ الدم أهم من المال ، فان هذه الحقيقة راعتها القضايا التالية . فتقدمت القضيتان المتعلقتان بالدم ، أعنى قضية الزنا وقضية قتل النفس التى حرّم الله تعالى الا بالحق ، على القضايا المتعلقة بالمال بعد ذلك .

أما القضيتان الأخيرتان فانهما تريدان للمسلم أن يحسن مخبرا ومظهرا . أما المخبر فعن طريق التمسك بتعاليم القرآن الكريم والسنة المطهرة وعدم اقتفاء ما ليس له علم به . وأما المظهر فعن طريق المشى على الأرض هوناً وترك الخيلاء والمشى فى الأرض مرحا .

(٦)

زعم العرب أن الملائكة بنات الله والرد عليهم

تبينا أن قضية توحيد الله تعالى والنهى عن أن يشرك به عز وجل وحده أكثر القضايا الاثنتى عشرة التى عرضت لها آيات الحكمة أهمية . فاذا كانت كل قضية قد ذكرت مرة واحدة فقط ، فان قضية التوحيد هذه قد ذكرت مرات ثلاثا على نحو ما تبين من قبل .

وحينما نتساءل بعد انتهاء آيات الحكمة هذه عن القضية التى هى الأولى ، بين قضايا الحكمة ، لأن يعود اليها الحديث مرة أخرى أو الى فرع منها ، فان الجواب معروف بطبيعة الحال ، انها ولا شك قضية التوحيد التى تستأثر لأهميتها بالنصيب الأوفى فى كل من القرآن الكريم والسنة المطهرة . وحينما كان الحديث بعد ذلك مرتبطا باحدى قضايا الحكمة ، كان من الطبيعى أن يكون خاصا بقضية التوحيد هذه . وهذه هى الآيات فى ذلك ، قال تعالى : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا ، انكم لتقولون قولا عظيما . ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا . قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا ﴾ .

فى امكاننا أن نتمثل درجات الخطأ المركب الذى تورط فيه العرب بزعمهم أن الملائكة بنات الله — كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا — انهم حمقا منهم وجهلا يبغضون اناث الذرية ويحبون ذكورها . وثمة أكثر من اشارة فى القرآن الكريم الى ذلك . بل انتهى الأمر ببعض العرب الى وأد البنات ودفنهن بالحياة . ومن الاشارات القرآنية الى ذلك ما جاء فى آيات الحكمة بسورة الاسراء هذه من نهى عن قتل الأولاد ، والمراد بذلك النهى عن وأد البنات . فما هى الصورة التى ارتضاها المنطق السقيم لهؤلاء المشركين وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الله عز وجل خالقهم ورازقهم ؟ انهم

يحتفظون لأنفسهم بحب ذكور الذرية ويزعمون أن الله عز وجل قد اتّخذ من الملائكة إناثا ! فمنطقهم السقيم يحملهم على أن يخصوا أنفسهم بما يشتهون أما ما لا يشتهون فانهم يجعلونه نصيبا لله عز وجل خالقهم وخالق كل شيء .

فى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نتبين التقريع العنيف والتبكيت المرير لمشركى العرب فى السؤال الذى توجهه اليهم هذه الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما ﴾ .

إنّ هؤلاء يقولون ما يقولون دون شيء من علم انما يرددون ما يقال لهم دون أن يحكّموا عقولهم أو أن ينتفعوا بها . كيف تسنّى لهم أن يتفوّهوا بهذا الكلام الخطير ؟ وكيف صح فى عقولهم وهم المخلوقون أن يخصوا خالقهم وموجدهم من العدم بما يكرهون إذ إنّهم يبغضون الإناث ؟ وهل ثمة من سبب موجب لأن يحتفظوا لأنفسهم بالذكور ويخصوه عز وجل بالاناث ؟ هل ثمة من سلطان على ذلك أو حجة ؟ وبما أنه ليس ثمة من سبب موجب لشيء من ذلك فلم يبق سوى أن القوم انما يتّبعون أهواءهم بغير علم ولا هدى من الله . وما ذلك الا لأن قلوب القوم التى فى صدورهم عميت .

وعلى الرغم من تصريف القول فى القرآن الكريم وتنويعه كى يكف المشركون من غربهم ويعودوا الى الصراط المستقيم فانهم لا يزدادون الا ابتعادا عن الحق ونفورا منه . قال تعالى : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا ﴾ .

هذه الفئة الضالة من العرب ، كان الأولى بها أن تنتفع من هذا القرآن الكريم الذى يسّره رب العزة للذكر فأنزله على المصطفى صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين . ومع ذلك فهم يصرون على عدم السماع أساسا وعلى عدم القبول ابتداءً . والعجيب فى الأمر أن هؤلاء هم أرباب الفصاحة والقدرة على فهم الكلام العربى وإعطائه القيمة الحقيقية التى يستحقها . ويزداد عجبنا حينما نتبين أنهم يرفضون الإصغاء للقرآن الكريم ويهيئون أنفسهم لرفض كل ما جاء فيه ، وذلك فى الوقت الذى يجدون أنفسهم مهيئين لفهم كل أنواع الكلام التى تصافح آذانهم والتى يصوغها الشعراء ويحبرها الخطباء فى تلك

الموضوعات التى تظل دائما وأبدا موضوعات تافهة بالقياس لما جاء به القرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

إنهم يفهمون ذلك الكلام والشعر ويعطون كلا قيمته التى يستحق بينما يصرون على الإعراض بل النفور عن القرآن الكريم فى اللسان العربى المبين ، على الرغم من أنه يمثل أعلى قمم البلاغة التى عليها يحرصون وعنها يبحثون ولها يقدّرون .

وإذا فتشنا عن السبب المهم الذى دفع العرب للوقوف من القرآن الكريم ومن النبى العظيم هذا الموقف ، فانه يتبين أنه يكمن فى الدعوة الى توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له ونبذ كل الأرباب المتفرقين . قال تعالى فى سورة ص[1] : ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص . وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة الها واحدا ، ان هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، ان هذا الا اختلاق ﴾ .

وما معنى القول « صرفنا » ؟ نستطيع أن نفهم المعنى الأولى من القول مثلا : تصريف الرياح وتصريف الكلام ، بأنه تحويل الرياح من جهة الى جهة وتحويل الكلام من وجه الى وجه ، ومنه علم الصرف ، أى علم تحويل اللفظة المشتقة من صيغة الى صيغة ومن وجه الى وجه . فاذا ما نظرنا الى جملة « صرفنا » فى قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ﴾ من هذه الزاوية ، استطعنا أن نفهم أن فى الآية الكريمة حذفا بلاغيا تقديره : ولقد صرفنا القول فى هذا القرآن ليذكروا . بمعنى أن هذه القضية ، الغاية فى الأهمية ، قضية التوحيد ، اقتضت منه عز وجل أن يحول القول فى القرآن الكريم من وجه الى وجه ، بقصد حمل الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم أولا على أن يتدبروا هذا القرآن ويفهموه ويقرّوا بوحدانية الله تعالى وينبذوا الآلهة التى لا تخلق شيئا ولا تنفع ولا تضر ، ومن تلك الآلهة الملائكة التى كان يعبد البعض .

---

(١) ١ — ٧ .

وكان تصريف القول فى القرآن الكريم متمثلا فى اشتماله على ضروب القول المختلفة من وعد ووعيد وقصص ومثل وخبر وبشـــارة وإنذار وما الى ذلك من طرق القول بقصـــد حمل العرب أول الأمر على التذكر والتدبر ، وحيث إنهم لم يكونوا مستعدين أساســا لأن يغيروا من موقفهم السابق الخاطىء ، فقد كانوا لا يزدادون كل مرة يدعون فيها الى توحيد الله تعالى الا نفورا واســتكبارا ، غطرسة واستهتارا • وسنتبين قريبا السبب فى ذلك وهو الحجاب المستور الذى وضعه الله تعالى بين قارىء القرآن وبين أولئك المصرين على رفض كل خير دون أن ينتفعوا من عقل أو يستفيدوا من بصيرة •

والعجب فى حال هؤلاء المشركين • انهم مصرون على عبادة الآلهة التى لا تخلق شيئا ولا تملك نفعا ولا ضرا ولا تملك موتا ولا حيـــاة ولا نشورا ، وجعلها أندادا لله تعالى ووسائل تقربهم من الله زلفى حسب زعمهم • وقد رد القرآن الكريم عليهم ردا مفحما وذلك فى الآيتين الكريمتين التاليتين • قال تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذن لابتغوا الى ذى العرش ســبيلا • سبحانه وتعالى عمـــا يقولون علوا كبيرا ﴾ •

ان الآية الكريمة الأولى ، تبين لهؤلاء المشركين بالدليل المنطقى استحالة أن يكون مع الله تعالى خالق كل شىء آلهة أخرى ، لأن ذلك يعنى استبداد كل اله بما خلق فى هـــذا العالم وذهابه ، به وبالتالى ذلك يعنى فساد السماوات والأرض ، بينما الواقع غير ذلك • فالكون كله خاضع لنظام بديع دقيق وكل شىء فى هـــذا الكون آية دالة على أنه تعالى واحد أحد فرد صمد •

والآية الكريمة الثانية تنزهه عز وجل ــ على غرار أولى آيات هذه السورة الكريمة ــ عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته عز وجل • والعجيب فى الأمر أن كل ما خلق الله تعالى من السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن يسبح بحمده عز وجل وينزهه عن كل ما لا يليق به تعالى • مم يحدث ذلك ؟ يحدث من كل ما خلق جل وعلا حتى النبات والجماد ، بينما يتورط الانسان الذى من الله تعالى عليه بنعمـــة العقل وكرمه بحرية الارادة ، فى جريمة الشرك بالله تعالى دون انتفاع من عقـــل أو بصـــيرة •

(٧)

حجاب مستور

بين قارئ القرآن ومنكري البعث

حينما نبحث عن السبب الذى من أجله تورّطت هذه الفئات فى الحيرة والضلال المبين من شرك بالله تعالى وما الى ذلك ، فانه يتبين أنه يكمن فى أن تلك الفئات لا تؤمن بالبعث والنشور والجزاء • وحينما تعتقد أية فئة أنه ليس هناك من حياة أخرى سوى الحياة الدنيا ، فان هذه الفئة تحرص على الحصول فى هذه الحياة على كل ما يمكن الحصول عليه فى أية صورة من الصور ، دون أن يكون منها فى قليل أو كثير إحساس بوجود اليوم الآخر فضلا عن العمل من أجله ووضعه فى الحُسبان • ومن هؤلاء كفار مكة الذين يشركون به عز وجل غيره من ناحية ولا يقرّون بوجود اليوم الآخر من ناحية أخرى • وفى ضوء هذين الموقفين الخاطئين هم يرفضون كل دعوة الى الخير ، بما فى ذلك الإصغاء للقرآن الكريم الذى يرتله المصطفى صلى الله عليه وسلم ترتيلا • قال عز من قائل : ﴿ واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا • وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا • نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا • انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ •

نودّ أن نقدم بين يدى دراستنا لهذه الآيات بما يلى :

أولا : من المعروف أن هذا الموقف من القرآن الكريم إنّما وقفه كفار مكة بمحض إرادتهم على الرغم من تصريف القول فى القرآن الكريم لهم كى يتذكروا ويتدبروا ويتعظوا • فلما انصرفوا صرف الله قلوبهم • أراد الله تعالى لهم الخير وأصروا هم على الشر •

ثانيا : هذا الموقف الذى سيقفه كفار مكة من القرآن الكريم سابق فى علمه عز وجل الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض • ولا مكان للزمن بشأن علمه الكامل التامّ عز وجل •

ثالثا : لقد سدّ كفار مكة كل منافذ الخير التى كان المفروض أن يلج منهـا نور القرآن الكريم • وقد عبر عن منعهم للنـور أن يصـلهم عن طريق إغماضهم أعينهم فالآية الكريمة تنزل نور الهداية الذى يدرك بالبصيرة منزلة النور الذى تتعامل معه العينان بجامع الهداية وتبيين الطريق الصحيح فى كل • قال تعالى : ﴿ واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجـابا مستورا ﴾ وعبّر عن عـدم استعدادهم المطلق لتقبّل أفئدتهم للقرآن الكريم بالقول : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾ وعبر عن عدم استعدادهم لسـماع القرآن الكريم سماع تدبر بالقول : ﴿ وفى آذانهم وقرا ﴾ •

بعد هذا التقديم نود تأمل كل فكرة على حدة • فمع الفكرة الأولى • قال تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ﴾ •

أصرّ مشركو مكة على ألا يصلهم نور الحق • وحيث انّ هذا النور المعنوى بمنزلة النور الذى تبصره العينان إذ تحدث بهما الهداية المعنوية والبصرية على التوالى ، وحيث انّ القوم قد حالوا دون نور الهداية أن يصلهم ، وحيث ان نور البصر إنما يحجب عن طريق وضع حجاب أو ستار يحول بين النور وبين أن يصل الى البصر أو العين ، لذا حسن استعارة هذا الحجاب الحسى ، دليلا على الحجاب المعنـوى الذى جعله المشركون حيالا بينهم وبين نور الحقّ ، بجامع حجب النور فى كل من المناسبتين ، نور الهداية الذى يرشد الى طريق الخير والفلاح ، ونور البصر الذى يبين للإنسان الطريق الصـحيح الذى ينبغى أن يسلك •

ومع أن المشركين هم الذين وضعوا فى الحقيقة هذا الحجاب الذى يحول بينهم وبين نور الحق ، فقد أسند العمل فى الآية الكريمة الى رب العزة • قال تعالى : ﴿ واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ﴾ دليلا على علم الله تعالى التـام بما يفعل هؤلاء المشركون ، وغضبه عليهم ومدّهم فى طغيانهم يعمهون • فهذا التعبير القرآنى فى حقيقته من جنس التعابير القرآنية الكثـيرة الدالة على غضبه عز وجل على الذين يرفضون بعنف كل دعوات الخير فيمدّهم الله تعالى فى طغيانهم دليلا على سخطه وغضبه • ومن الأمثلة

على ذلك قوله تعالى[1] : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ . فالمرض إنما كان أساسا فى قلوب المنافقين ، فزادهم الله مرضا . وهم الذين انصرفوا عن سماع الحق وتدبره فصرف الله قلوبهم . أما الآخرون فهم الذين نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم ، أى أنساهم كل ما يعود بالخير على أنفسهم . لماذا يحدث كل ذلك ؟ لأن الله تعالى بيّن بواسطة رسله طرق الخير ، فأصرت تلك الفئات على اتباع طرق الشر فزادها الله تعالى عمى على عماها .

وإن الشيء ذاته يقال عما نحن بصدده فى سورة الإسراء . فالكافرون هم الذين وضعوا الحجاب المستور بينهم وبين نور الهداية كيلا يصلهم . أما وقد رضوا بذلك ورفضوا نور الهداية أن يصلهم وأصروا على ذلك ، إذن ليبقَ ذلك الحجاب ، وليحل بينهم وبين نور الهداية أن يصلهم تحقيقا لرغائبهم التى تدل على عمى البصيرة، وليعبّر عن ذلك بالقول : ﴿ واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ﴾ دليلا على غضب الله تعالى على تلك الفئات ، وتخليه عز وجل عنها ومده لها فى ضلالها وإمهاله لها حتى تؤخذ أخذ عزيز مقتدر .

وهكذا يتضح أن الخير مراد من الله عز وجل دائما وأن الشر انما يصل البشر من جانبهم هم أنفسهم . ووصف الحجاب بأنه مستور لأنه لا يمكن أن يُرى ، ولأنه حجاب معنوى ، ولأن النتيجة التى يتوصل اليها من هذا الحجاب المستور هى ذات النتيجة التى يتوصل اليها من الحجاب الحسّى الذى يوضع أساسا كى يحول بين الإنسان وبين الشىء الذى لا يريد أن يصله .

وفى الوقت الذى أغمض المشركون أعينهم كيلا يصل اليهم نور الحق ، كان عندهم استعداد عجيب لرفض كل أنواع القول فى القرآن الكريم

---

(١) البقرة ، ١٠ .
(٢) التوبة ، ١٢٧ .
(٣) الحشر ، ١٩ .

التى تسعى الى تذكيرهم ووعظهم والتى تبحث دائما وأبدا عن منفذ تنفذ منه الى قلوبهم وأفئدتهم • ولكن الرفض عنيف ومنافذ القلب محكمة الإيصاد ، فلا يستطيع شىء من القرآن الكريم أن يتخلل القلب أو ينفـــذ اليه • ولو حاولنا تمثـــل قلب تلك صـــفته التى أعيت كل المحاولات ، فما هى الصورة التى يستطيع القلب أن يقوم عن طريقها بعملية الرفض العنيفة تلك ؟ انها صورة ذلك القلب الذى غلفت كل نواحيه بذلك الغطاء السميك الصفيق الذى يحول بين القلب وبين كل المحاولات لاقتحامه • ومن الذى وضع ذلك النوع من الأغطية على القلوب ؟ المشركون ولا شك ، اذ لم توفق كل أنواع التعابير القرآنية أن تتسرب خلالها • وما الذى استوجبه هؤلاء المشركون من الله عز وجل ؟ استوجبوا غضبه فزادهم ضلالا إلى ضلالهم •وقد عبّر عن هذه الحقائق على الطريقة السابقة بشأن الحجاب المســـتور • قال تعالى : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾ • ونحن فى حقيقة الأمر بصدد توافق فى المغزى البعيد مع قوله تعـــالى من قبـــل عن موقف المشركين : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا ﴾•

وحيث إن ثمة منفذين يستطيع نور الايمان أن ينفذ خلالهما إلى القلب ، وهما حاستا البصر والسمع ، ويتخذ البصر دليلا على البصيرة ويراد بالسماع سماع التدبر وليس السماع المجرد • وحيث إننا انتهينا من تصوير القرآن الكريم لتعطيل مشركى مكة حاسة الابصار ، فبقى إذن الحديث عن حاسة السمع أو السماع الذى يراد منه التدبر والاتعاظ • فما هو موقف كفار مكة من هذه الحاسة التى كان فى مقدور نور الهداية أن ينفذ خلالها مع انسياب آيات الذكر الحكيم الى نفوس المشركين السامعين لهـــا ؟ الواقع أن هؤلاء المشركين عطلوا عمل هذه الحاسة أيضا،وجردوها من أخص خصائصها وهى نقل ما تسمعه الأذن الى النفس والقلب • وحينما نعلم أن الأذن تسمع مايريد الانسان وما لايريد ندرك المجهود المضنى الذى بذله هؤلاء المشركون فى سبيل الحيلولة دون سماع آذانهم آيات الذكر الحكيم سماعا مجردا فضلا عن أن يكون السماع سماع تدبّر •

واذا حاولنا تمثل الأذن التى تســـتطيع أن تحول بين الإنســـان صاحبها وبين أن يسمع أى شىء ، فان ثمة نوعا واحدا فقط من الآذان هو الذى يستطيع أن يقوم بهذا العمل ، ألا وهو ذلك النوع الذى

به وقر ، والذى لا يستطيع الإنسان به أن يسمع أى شىء يحبّ أو يكره • ومن الذى جرد هذه الحاسة من أهم أعمالها ؟ مشركو مكة • وما الذى استوجبه هؤلاء المشركون الذين أرادوا لأنفسهم الشر كل الشر من البر الرحيم الذى أراد لهم الخير كل الخير فبعث فيهم آخر رسله وأوحى اليه آخر كتبه وأشرفها بلسان عربى مبين ؟ استوجب هؤلاء غضب الرحمن الرحيم وأن يزيدهم ضلالا الى ضلالهم ووقرا الى وقرهم •

واذا تساءلنا لماذا ابتدأ الحديث بالقلوب فى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ﴾ ؟ والجواب أن القلب هو الأكثر سيطرة على هذه العملية وهو الهدف وحينما تعطلت الغاية تعطلت الوسيلة •

وتبقى بعد ذلك المسألة الأخرى الغاية فى الأهمية والتى لسماعهايثور المشركون ثورة عارمة لا تكاد تبقى على شىء ولا تذر فلا يستطيعون أن يمسكوا على أنفسهم أو يضبطوا أعصابهم انما ينفجرون كالبركان الثائر • أما هذه المسألة فانها حينما يسمعون من القرآن الكريم ما يفيد توحيد الله تعالى وأنه واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد • والى هذا الموقف العجيب والنفور الغريب لمشركى مكة من دعوة الحق هذه أشار قوله تعالى : ﴿ واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولو على أدبارهم نفورا ﴾ •

والحقيقة أن تعطيل هذه الفئة لنعمة العقل وثقتها البعيدة المدى فى كبرائها وسادتها المشركين وفناء شخصياتها فيهم قد بلغ أقصى الغايات، وقد تجلى ذلك فى تلك المناعة الطبيعية التى اكتسبها هؤلاء الأتباع فى ذلك الرفض الآلى الفطرى لكل دعوة للخير وفى مقدمتها توحيد الله تعالى. قال عز من قائل[1] : ﴿ واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير » •

ومن حقنا أن نسأل سؤالا وجيها هو : كيف تسنّى لهؤلاء المشركين أن يظلوا مستمسكين بمعتقداتهم الزائفة وآرائهم الخاطئة دون أن تستطيع ضروب القول المختلفة فى القرآن الكريم أن تقوم من تلك

---

(١) لقمان ، ٢١ .

المعتقدات وتصحح من تلك الأخطاء ؟ والجواب على هذا السؤال نتبينه كاملا فى قوله تعالى مباشرة : ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ، أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ .

فهؤلاء المشركون ، بنص القرآن الكريم ، لا يأخذون القرآن الكريم مأخذ الجد الذى ينبغى أن يؤخذ به . بل إنهم لا يستقبلونه بنفوس صافية وعقول واعية وقلوب خالية مما ملأها به أعداء هذا الدين والنفوس الأمارة بالسوء ، عسى أن يعمل القرآن الكريم بتؤدة عمله . لا إن هذا وذاك لم يحدثا . إنما الذى حدث هو أن هؤلاء المشركين كانوا متحفزين دائما لرفض القرآن الكريم ومهيئين أنفسهم لعدم الإصغاء اليه ومتطوعين دائما وأبدا للحيلولة بين هـذا القرآن وبين أن يصـل الى أسـماع سكان مكة بعامة . وكما أن هذا هو موقفهم من سماع القرآن الكريم الذى يرتله المصطفى صلى الله عليه وسـلم ترتيلا ، فان موقفهم من القرآن الكريم حينما يخلو بعضهم الى بعض لا يختلف عن ذلك الموقف ، إنه الهزء والاستخفاف والزعم بأنه صلى الله عليه وسلم مسحور أو كاذب أو ساحر أو كاهن أو شاعر . وأن القرآن الكريم ما هو الا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا الى آخر تلك الترهات .

وشاءت ارادته عز وجل أن يسلى رسوله صلى الله عليه وسـلم ويسرى عنه بعض ما يعانى من هؤلاء المشركين . قال تعالى فى سورة الحجر[1] : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون . ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ . وقال تعالى فى سورة الإسراء مخاطبا حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ .

إن رب العزة يخاطب المصطفى صلى الله عليه وسلم مشعرا له بأنه معه ومطلع على كل صغيرة وكبيرة تبدر من المشركين قائلا : انظر يا محمد كيف ضربوا لك الأمثال وذهبوا فى تفسير القول الذى جئت به كل مذهب واختلفوا فى تعيين مصدره كل الاختلاف . وكل ذلك ضلال فى

---

(١) آيات ، ٩٥ — ٩٩ .

ضلال يتمسكون به جهلا منهم وحمقا ويرفضون ما نصّ عليه القرآن ذاته من أنه كلام رب العالمين ، وبالتالى فقد ضيّعوا الطريق الوحيد الصحيح ، طريق الهدى والفلاح • وقد قال عز من قائل فى سورة الشعراء[1] : ﴿ وانه لتنزيل رب العالمين • نزل به الروح الأمين • على قلبك لتكون من المنذرين • بلسان عربى مبين • وانه لفى زبر الأولين • أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل • ولو نزلناه على بعض الأعجمين • فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾

(١) آيات ، ١٩٢ — ١٩٦ .

(٨)

لماذا لا يؤمنون بالآخرة؟

قال تعالى : ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا • قل كونوا حجارة أو حديدا • أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون اليك رءوسهم ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا • يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا ﴾ •

مشركو مكة ينكرون حقيقة البعث لأنهم عاجزون عن الفهم بأن ثمة القدرة التى تستطيع إعادة الحياة لجسم الإنسان الذى صارت أوصاله ترابا وعظاما رميما • وهم يركزون على العظام لأنها قوام البدن • وحينما يعتريها البلى فذلك يعنى أن البلى قد سبق الى غيرها مما يتكون منه البدن ويرتبط بالعظام • وأحيانا تكون نظرة هؤلاء لجسم الانسان بعد الموت من زاوية مغايرة قليلا تشمل العظام وغيرها فى آن واحد • وهم يلاحظون أن البلى يتأخر تمكنه من العظام عن تمكنه من سواها • يبدو ذلك من مثل قوله تعالى على لسانهم فى سورة الواقعة[1] : ﴿ وكانوا يقولون • أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون • أو آباؤنا الأولون ﴾ •

ومن البين أن السبب فى إنكار هؤلاء المشركين للبعث ونظرتهم المستكثرة إعادة الحياة للأجسام هو أنهم لم يفطنوا إلى حقيقة وجودهم نطفة أساسا حتى غدوا مبينين فى الخصام والجدل • ولو أنهم أعطوا المسألة ما تستحق من اهتمام لانتهوا الى أنها بمنزلة إعادة عمل الشىء نفسه • وقد جرت العادة فى عرفنا أن عمل الشىء مرة ثانية اهون من عمله ابتداء • وبالنسبة للذات العلية يتساوى العملان فى البساطة • قال تعالى فى سورة الروم[2] : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو

---

(١) آية ، ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) آية ، ٢٧ .

أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾.

وإذا كان مشركو مكة يستكثرون إعادة الحياة لجسم الإنسان الذى تمكن منه الفناء ، فإن القرآن الكريم يقابل سؤال المشركين التعجبى بما هو أعجب وعلى جهة التعالى والترقى بأن يطلب اليهم ان استطاعوا أن يكون قوام أبدانهم ليست العظام . انما ماهو أصلب منها وأشد .وأبعد من العظام فى تصور إعادة الحياة اليه ، أن يكون قوام أبدانهم الحجارة أو الحديد أو أى شىء آخر يكبر فى صدورهم ويعتقدون أنه ألصق باستحالة إعادة الحياة اليه . إنه عز وجل قادر على إعادة الحياة اليهم .

ولا يخفى ان مقابلة سؤال المشركين التعجبى بما هو أعجب ، إنما يراد به حث مشركى مكة على تصحيح نظرتهم الخاطئة القاصرة التى تستأثر منفردة بكل اهتمامهم وتفكيرهم دون أن يكون معها تلك النظرة الأخرى التى تعتبر صنواً لهـا ومساعدة على أن تكون نظرة صحيحة ومنصفة وذات جدوى . انهم بحاجة الى أن ينظروا من نقطة البداية حيث قد خلقوا ولم يكونوا من قبل شيئا ووقتها سينتهون حتما الى أن البعث بعد الموت حقيقة لا ريب فيها وأن الثواب والعقاب ملازمان له وأنه عزوجل لم يخلقنا عبثا ولم يرد أن يتخذ لهوا . قال تعالى[1] : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ﴾ .

ولكن موقف مشركى مكة هو التشـكك والرفض دائما . وهذا هو موقفهم من الجواب الحاسم على سؤالهم الإنكارى . قال تعالى ﴿ فسينغضون اليـك رءوسهم ويقولون متى هـو ، قل عسى أن يكون قريبـا ﴾ .

ومعنى ينغضون : يحركون . ولكن الحركة فى هذه المناسبة ليست مرسلة انما مقيدة موجهة . انها حركة من رءوس هؤلاء المشركين موجهة

---

(١) الانبياء ، ١٦ — ١٨ .
(٢) المؤمنون ، ١١٥ .

نحو شخص الرســـول الكريم تعنى تعجبهم الدائم من كل ما يتفوه به هذا الرسول الكريم واستنكارهم له ،مردفين ذلك بسؤالهم الإنكارى التقليدى : متى هو ؟ والجواب على ذلك السؤال معروف ولكنه قصور الإدراك وعمى البصيرة .

ونود أن نقف مليا عند قوله تعالى ردا على استفهام مشركى مكة عن موعد اليوم الآخر: ﴿قل عسى أن يكون قريبا﴾ .

إن ثمة قاعدة كلية يمكن أن يندرج تحتها كل ما سيقع فى المستقبل ، ويمكن أن نوجزها فى القول المشهور : كل آت قريب . وإذا كان هذا القول يصدق على اليوم الآخر ، فان ثمة بعض الملابسات المتعلقة بهذا اليوم الآخر والمسعفة على فهم المعانى العميقة التى يتضمنها الجواب فى الآية الكريمة : ﴿قل عسى أن يكون قريبا﴾ وأول ما نود الوقوف عنده الحقيقة المقربة لمعنى الموت ألا وهى حقيقة النوم الذى يعتبر صنوا للموت أو أخا أصغر له . وقد جاء بشأن كل من الموت والنوم قوله تعالى فى سورة الزمر[1] : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ فما الذى يمكن أن يفهم من تماثل فى هذه الآية الكريمة بين الموت والنوم ؟ بما أن النائم مهما طال نومه لا يحس بوجوده هو ووجود الزمن الا بعد أن يستيقظ ، فمعنى هذا أن هذه الحالة أو شبيها بها هى التى يمر بها من توفاه الله تعالى الى أن يبعث مرة أخرى يوم القيامة — وينبغى أن يلاحظ أننا تجاوزنا سؤال القبر أو عذابه وما الى ذلك مما تصادف النفس الإنسانية التى يتوفاها الله تعالى .

وما دمنا عرفنا أن الزمن لا وجود له بشأن كل من الميت والنائم ، فاننا نستطيع أن نفهم المغزى لهذا القول -: من مات قامت قيامته . فبما أن الميت أو من فى حكمه لا يحس بمرور الزمن ، سواء أكان ذلك الزمن مجرد ثوان أم قرونا عدة ، وبما أن الاستيقاظ بشأن النائم والبعث بشأن الميت حاصلان مستقبلا . فما أصدق القول : كل آت قريب ، والقول بشأن الموت : من مات قامت قيامته ، وذلك لقرب يوم

---

(١) الزمر ، ٤٢ .

القيامة من ذلك الذى مات ، على نحو ما جاء فى أكثر من موضـــع فى القرآن الكريم .

ونحن وراء ذلك إزاء العديد من الأدلة القرآنية على عدم إحساس النفس التى توفاها الله تعالى أو التى هى فى حكم المتوفاة بوجـــود الزمن الذى قضته فى موتها أو رقدتها من ذلك الرجل الذى أماته الله تعالى مائة عام وأهل الكهف . قال تعالى[1] ﴿ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾ وقال تعالى[2] : بشأن أهل الكهف الذين ضرب الله تعالى على آذانهم ثلاثمائة سنة شمسية وتزيد تسع سنوات اذا اعتبرناها قمرية : ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا ، انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا ﴾ .

إن أصحاب الكهف ، بما فى ذلك الذين ظنوا أن لبثهم فيه ربما زاد عما قال زملاؤهم : لبثنا يوما أو بعض يوم ، لم يكن ليخطر ببال أحد منهم أن الوقت الذى قضوه فى الكهف طويل كما هو فى الواقع ، فلعلهم اعتقدوا أنه ربما زاد على أكثر تقدير عن اليوم الواحد . أما أن الوقت الذى قضوه يعد بالمئين من السنوات ، فهذا شىء لم يكن ليخطر على بال واحد منهم . ولا شك أننا بصدد دليل قوى وأكيد على أن الميت ومن فى حكمه ليس للزمن وجود عنده مهما طال .

وهذا دليل آخر على هذه الحقيقة ، نقتبسه هذه المرة من ســـورة المؤمنون[3] مما جاء على ألسنة الذين خفت موازينهم والذين خسروا أنفسهم وفى جهنم خالدون . قال تعالى : ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض

---

(١) البقرة ، ٢٥٩ .
(٢) الكهف ، ١٩ ، ٢٠ .
(٣) آيات ، ١١٢ — ١١٤ .

عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين • قال ان لبثتم الا قليلا ، لو أنكم كنتم تعلمون﴾ إنّ القول فى الآية الكريمة : ﴿كم لبثتم فى الأرض﴾ يشمل كلا من الفترة التى عاشوها أحياء فى الحياة الدنيا والفترة التى قضوها أمواتا فى قبورهم • إنّ هذه وتلك لا تعدو فى نظرهم اليوم أو بعض اليوم لهول العذاب يوم القيامة • وانظر الى ما جاء فى سورة طه[1] على لسان المجرمين أيضا فى هذا الشأن • قال تعالى : ﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا • يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا ، نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما﴾ •

وما معنى استجابة منكرى البعث يوم القيامة لدعوته عز وجل بحمده وتسبيحه على نحو ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا﴾ يقول الزمخشرى[2] : « وقوله : بحمده حال منهم ، أى حامدين ، وهى مبالغة فى انقيادهم للبعث • كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع : ستركبه وأنت حامد شاكر • يعنى أنك تحمل عليه وتقسر قسرا ، حتى إنّك تلين لين المسمح الراغب فيه الحامد عليه • وعن سعيد بن جبير : ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك » وهذه الجزئية فى الآية الكريمة : ﴿ وتظنون ان لبثتم الا قليلا﴾ دليل على هول ذلك الموقف ، حتى إنّهم ليعتبرون الفترة التى قضوها فى الحياة الدنيا بما فى ذلك الفترة التى قضوها فى القبور ، ليست شيئا على الاطلاق •

ومن الواضح أن الحوار فى هــذه الآيات الكريمة من قبيل الدّعوة الى الله تعالى بالتى هى أحسن ، تلك الدعوة التى حث عليها القرآن الكريم فى غير موضع منه وها هى ذى تطبق فى محاورة المشركين فى أخطر قضية على الإطلاق ، قضية التوحيد •

---

(١) آيات ، ١٠٢ ــ ١٠٤ .
(٢) ٢ / ٢٣٥ .

(٩)

عباد الرحمن
يقولون التى هى أحسن

قال تعالى : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا • ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم أو ان يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ •

نعرف أن فى سورة الفرقان مجموعة من النعوت التى يتحلّى بها عباد الرحمن ، وها نحن أولاء أمام صفة حميدة جديدة لهؤلاء العباد ، هى أنهم فى دعوتهم غير المسلمين الى الله تعالى واعتناق دينه عز وجل الذى ارتضى لعباده وعبادته وحده لا شريك له ، يتحلّون بدماثة الخلق وطيب القول ، والحكمة والموعظة الحسنة • وبذلك يكسبون قلوب الذين يدعونهم الى الله تعالى ويستميلونهم الى الإسلام ، ويهيّئون لهم فرصة تدبّر هذا الدين بأذهان صافية وقلوب سليمة ونفوس خالية من كل شائبة • إنّ هذا هو الطريق الذى يريده رب العزة لعباده كى يسلكوه فى دعوتهم لله تعالى • وهذا يعنى أننا بصدد أدب قرآنى ينبغى أن يتحلّى به الدعاة الى الله تعالى • وينبغى أن نقرّر بهذه المناسبة أنّ الإسلام إنما انتشر ودخل فيه الناس أفواجا بسبب تطبيق الدعاة الى الله تعالى لهذه التعاليم السماوية •

وفى الوقت الذى أُمِرَ فيه الدعاة الى الله تعالى بأن يقولوا دائما الكلمة التى هى أحسن ، هم نُهُوا عن أن يقولوا عكس هذه الكلمة • لأن عكس هذه الكلمة الطيبة ، هى التى يأمر الشيطان عليه لعنة الله بقولها واللجوء اليها فيحدث النفور فالجفوة ففساد الحال بين الدعاة وبين المدعوّين • وقد أشار الى النهى عن قول الكلمة غير الحسنة قوله تعالى فى الآية الكريمة : ﴿ ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا ﴾ فالشيطان عليه لعنة الله يريد أن يُوصد كل أبواب الخير والفلاح ، ومن وسائله الى ذلك أن يغرى الدّعاة الى الله تعالى بأن يقولوا للذين يدعونهم هُجْر القول ، وبذلك يخسر

الطرفان • وتأمل تكرار لفظة الشيطان فى الآية والعدول عن الضمير العائد اليه بقصد التحذير •

إنّ نظرتنا لهذه الآية الكريمة : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا ﴾ قد راعت ما سبق الآية وتلاها من آيات ، حيث إنّ الحديث فى مجموعه حول المشركين ودعوتهم الى دين الله تعالى الذى ارتضى لعباده • ومن الجائز أن تكون نظرتنا لهذه الآية الكريمة أكثر اتساعا وشمولا • فبالإضافة الى أن المطلوب من الداعى الى الله تعالى أن يدعو اليه عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة ، هى تعنى أن المطلوب من كل إنسان مؤمن أن يكون كلامه حسنا طيبا بصفة دائمة ، سواء أثناء دعوته غير المسلمين الى دين الله تعالى أو أثناء حديثه مع المسلمين أو عنهم فى غيابهم • فالمطلوب من المسلم بنصّ الآية الكريمة أن يكون كلامه طيبا • والنظرة العامة الشاملة لهذه الآية الكريمة تتسع كى تشمل ما جاء فى سورة الفرقان[1] عن طبيعة قول عباد الرحمن ، قال تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ كما تشمل معنى آية سورة النحل[2] قال تعالى : ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ كما تشمل معنى قوله تعالى فى سورة العنكبوت[3] : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ كما تشمل معنى قوله تعالى فى سورة ابراهيم[4] : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء • تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون • ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ ومع أنّ المراد بالكلمة الطيبة أساسا كلمة التوحيد ، وبالكلمة الخبيثة كلمة الشرك ، فان كلا من الكلمتين يمكن أن تتسع فتشمل كل الكلام الطيب الذى يأمر به الدين الحنيف ، وكل الكلام الخبيث الذى ينهى الدين الحنيف عنه •

---

(١) آية ، ٦٣ .
(٢) ، ١٢٥ .
(٣) آية ، ٤٦ .
(٤) آيات ، ٢٤ — ٢٦ .

ومن المعروف أن معاملة كفار مكة للمؤمنين آنذاك كانت غاية فى السوء • ورغبة فى أن يظل المؤمنون هم دائما تلك النواة الطيبة لخير أمة أخرجت للناس ، فقد أدبتهم سورة الإسراء وأمرتهم بألا يعاملوا المشركين بالمثل • وهذا بطبيعة الحال حينما كان المؤمنون قلة مستضعفين فى الأرض ، وبقصد استنفاد كل وسائل الحسنى لحمل المشركين على جادة الطريق • حتى إذا ثبت أن هذه الطريقة وأمثالها غير ذات جدوى أمر المؤمنون — وقد أصبحوا باذنه تعالى قوة قادرة على أن تنفع وتضر — بأن يقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة •

وهل هناك من نموذج قرآنى للقول الذى هو أحسن يمكن أن يلجأ اليه الدعاة الى الله تعالى فى محاورتهم لغير المسلمين ؟ نعم • انه فى الآية القرآنية الكريمة التالية ، قال تعالى : ﴿ ربكم أعلم بكم ، ان يشأ يرحمكم أو أن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ •

هذه هى الكلمة التى هى أحسن ، والتى أمر الداعية بأن تكون منتهى ما يقوله للذين يدعوهم الى الإسلام • ومعنى هذه الكلمة أن أمرهم موكول اليه عز وجل ، إن شاء رحمهم أو إن شاء عذبهم • وواضح أن تقديم الرحمة فى الآية الكريمة على العذاب يتمشى مع الكلمة التى هى أحسن ، لأن تقديم الرحمة مما تتألف به القلوب ويلم به الشمل ويرأب الصدع • فهناك انسجام تام بين الدعوة العامة للتى هى أحسن ، وبين اتجاه خطواتها داخليا •

وما معنى القول خطابا للمصطفى صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ ؟ معناه أنك يا محمد لست سوى بشير ونذير • ولست موكلا بإرغام هؤلاء على أن تتشرب قلوبهم الايمان • إن هذا فوق طاقتك ولست مطالبا به • وكل ما أنت مطالب به هو أن تبلغ الرسالة وتؤدى الأمانة • أما النتيجة والحساب ، فعلى الله تعالى •

(١٠)

تدرج فى الكلام حيث الأعلى

استبكثر كفار مكة إعادة الحياة مرة أخرى يوم القيامة للأجساد التى غدت رميما • وردا على استفهامهم الإنكارى التعجبى أجيبوا بما هو أعجب وألصق بالإنكار منهم • فاذا كانوا قد استبعدوا إعادة الحياة مرة أخرى للعظام التى كانت من قبل فى أجسام حيّة ، فقد طلب اليهم أن يكونوا — إن استطاعوا — حجارة أو حديدا أو خلقا آخر مما يكبر فى صدورهم ، وليكن ذلك الخلق الآخر من جنس الحجارة والحديد فى كونهما أبعد من العظام عن قبول الحياة ، فان العناية الالهية قادرة على إعادة الحياة لتلك الأجسام • وهـذا يعنى أن التعجب والإنكار وجّها الكلام حيث الأعلى • وإذا نظرنا الى ترتيب العناصر الثلاثة الحجارة والحديد والخلق الذى يكبر فى صدور القوم ، فاننا نتبين أنه معمق لاتجاه الكلام متدرجا حيث الأعلى • فالحديد أشد من الحجارة والخلق الذى يكبر فى الصدور ينبغى أن يكون أقوى من الحديد فضلا عن الحجارة وبالتالى أبعد عن قبول الحياة •

وإذا كانت الدعوة القرآنية التى توجّه الدعاة الى الله تعالى كى يقولوا التى هى أحسن تجعل المثال النموذجى التطبيقى للقول الذى هو أحسن متمثلا فى علم الله تعالى بحقائق نفوس عباده فان شاء رحم وان شاء عذب ، فان ظاهرة تدرج الكلام حيث الأعلى تتحقق فى الآيات القرآنية التالية إذ انتقل الحديث من الكلام عن علم الله تعالى بخفـايا النفوس الى ما هو أكبر من الناس ، الى السـماوات والأرض تمشيا مع قوله تعالى فى سورة غافر[1] : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وقد مهّد لهذا العلم الفاضل بقوله تعالى فى آيات الحكمة : ﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا ﴾ كما انتقـل

---

(١) آية ، ٥٧ .

الحديث الى تفضيل الله تعالى لبعض الخلائق على البعض الآخر ، فضلا منه تعالى وبحسب أعمالهم • وقد مهّد لهذه المفاضلة من قبل بقوله تعالى : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ • قال تعالى : ﴿ وربك أعلم بمن فى السماوات والأرض ، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا • قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا • أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه • ان عذاب ربك كان محذورا ﴾ •

يلاحظ على الآية الكريمة الأولى أنها تشير الى تفضيل الله تعالى بعض النبيين على بعض • وطبيعة التفضيل هذه تعنى أن البعض أعلى من البعض الآخر منزلة • فاذا كان هذا واضحا وصحيحا ، استطعنا أن نقول : إنّ هذه الجزئية الثانية تتجه الى أعلى بالقياس الى ما سبقها من إشارة الى علم[1] • هنا تتسع دائرة العلم وهناك تضيق • وفى الجزئية الثانية تعلو منزلة بعض النبيين على البعض الآخر • وهذه الحقيقة تعنى أكثر من شىء ، فهى تعنى أن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد فضله الله تعالى على سائر النبيين وأن سائر النبيين درجات • كما تعنى ــ وهذه حقيقة ملازمة لتفضيل الله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم على سائر النبيين ــ أن الأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس • إنّ التفضيل الذى حباه الله تعالى خاتم النبيين وأمّته ، انما يراد تقريره فى هذه الآية الكريمة واثباته ردّاً على مشركى مكة الذين يرفضون الحقيقتين • بل إنهم يرفضون نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم كما يرفضون أن يكون المؤمنون الفقراء الضعفاء أفضل منهم أو أن يكونوا النواة لخير أمة أخرجت للناس ••

وكانت الجزئية الثالثة والأخيرة فى الآية الكريمة دليلا على ذلك التفضيل وشاهدا عليه • قال تعالى : ﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ ففى الزّبور نص على أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين وأن أمته خير الأمم[2] • وقد جاء فى سورة الأنبياء[3] إشارة إلى

---

(١) صيغة التفضيل « أعلم » التى جاءت مرتين تتمشى مع تدرج الكلام حيث الاعلى ومع المفاضلة .

(٢) البحر المحيط ، ٦ / ٥٠ .

(٣) آية ، ١٠٥ .

ذلك • قال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ فالعباد الصالحون هم النبى صلى الله عليه وسلم وأمتـــه •

وفى سبيل الإثبات لمشركى مكة أن الآلهة التى يدعون من دون الله تعالى عاجزة تماما عن القيام بشأن عابديها بأى عمل نافع تطلب الآية التالية من المشركين أن يجرّبوا أنفسهم الطلب من الآلهة أن تقوم من أجلهم بعمل ما ، كى ينتهوا الى أنها غاية فى الضعف والعجز • قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾ • فالآية الكريمة تنص على أن الآلهة عاجزة عن كشف الضر الذى مس الله تعالى به من شاء من عباده كما أنها عاجزة أيضا عن تحويل هذا الضر عن جهته • وما دامت هـذه الآلهـة لا تستطيع أن تعمل شيئا بشأن دفع ما هو موجود فعلا من ضر أو تحويله ، فمن باب أولى أن تكون عاجزة عن أن تحدث هى ضرا • وما دام العجز لاصقا بها من ناحية الضر الذى هو سهل بالقياس إلى النفع ، فمعنى هذا أن العجز متمكن منها بل هو أشد تمكنا بالقياس لجلب النفع إذ المستقر فى النفوس أن تحقيق النفع أصعب من تحقيق الضر •

وهكذا يتبين أن الآلهة التى يدعو المشركون من دون الله تعالى ، يعتبر العجز صفة من الصفات اللاصقة بها المتمكنة منها • وقد وصفها الله تعالى فى سـورة الفرقان[1] بقوله : ﴿ واتخذوا من دونه آلهـة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعـا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾ •

واذا كان العجز صـفة لاصقة بهـذه الآلهة ، فينبغى أن يعرف عابدوها أن ما يعبدون من دون الله تعالى مأمورون بعبادته عز وجل وأن الأقرب الى الله عز وجل من بين هؤلاء العباد ، شديد الحرص دائما على أن يكون أشد قربا منه عز وجل ، ومن باب أولى الأقل قربا • قال تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه • ان عذاب ربك كان محذورا ﴾ • أو ليس عجيبا أن يخلص المعبودون العبادة لله تعالى ويحرصوا على

---

(١) آيه ٣ .

أن يكونوا أشد قربا منه عز وجل ويرجوا رحمته ويخافوا عذابه ـ ويلاحظ هنا أيضا أن ذكر الرحمة يسبق العذاب على غرار ما سبق ـ بينما يتخلى العابدون المشركون من البشر عن الصفات التى يتحلى بها معبودهم وفى مقدمتها توحيد الله تعالى ؟ إنه لعجيب ولا شك بل غاية فى العجب . ولكن هذا هو موقف مشركى مكة ، وذلك هو موقف المعبودين ومنهم الملائكة التى يزعم العرب تارة أنهم بنات الله تعالى ـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ـ والتى يعبدها بعض الجماعات حمقا منهم وسفها تارة أخرى .

ولعلنا تبينا أن مجىء لفظ الرب فى أولى آيات هذه المجموعة وفى الآية السابقة ، له أبلغ الأثر بشأن تسلية المصطفى صلى الله عليه وسلم والتسرية عنه . وجملة « قل » المشعرة بقرب مكان المخاطب مسعفة على ذلك .

(١١)

من مظاهر تصريف القول

قال تعالى : ﴿ وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا • وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا • واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ، ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا ﴾.

تهديد وتعليل وتسلية • ألفاظ ثلاثة يمكن أن يقال إنها تحدد مظاهر تصريف القول فى الآيات الثلاث •

فكفار مكة اذا أصروا على سلوك الطريق المعوجة ، سيتحقق بشأنهم وعيده عز وجل للظالمين أنفسهم فى قوله تعالى فى الآية الأولى : ﴿ وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ والكتاب المسطور هو سابق القضاء أو اللوح المحفوظ[1] لقد سبق فى علمه عز وجل أن كل القرى سيهلكها جل وعلا قبل يوم القيامة أو يعذبها عذابا شديدا • وإنما يكون الهلاك أو العذاب تبعا لمدى انحراف كل جماعة عن تعاليم السماء • فإن كان الانحراف كليا أو كبيرا ، استوجبت إهلاك الله تعالى لها واستئصال شأفتها • وإن كان الانحراف دون ذلك استوجبت عذاب الله تعالى الشديد لها •

ويبدو من الآية القرآنية الكريمة أن الانحراف فى أقل صوره سيكون شديدا للغاية ، لدرجة أنه يستوجب العذاب الشديد منه عز وجل • ونتذكر بهذه المناسبة قوله صلى الله عليه وسلم : بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ. وكأن أهل مكة يفهمون أن لهم نصيبا من ذلك العذاب غير منقوص ، خاصة وأن موقفهم من الدعوة إلى الإسلام

---

(١) البحر المحيط ٥٣/٦ .